التجديد في الفكر الإسلامي

عند ابن حزم وابن الجوزي



الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة

التجديد في الفكر الإسلامي

عند ابن حزم وابن الجوزي

الطبعة الثانية
١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ــ الكويت.
الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص.ب: ٦٦٥٢٠ بيان.
ت/٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصــــر من : مؤسسة شروق للترجمة والتوزيع

المنصورة.شارع جيهان.أمام مستشفى الطوارئ.ت ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة بيت الدعــــوة

رقم السلسلة (٦) **الرقم الفني (٦)**

التجديد في الفكر الإسلامي

عند ابن حزم وابن الجوزي

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الطبعة الثانية
١٤٣٣ هـ
٢٠١٢ م

طبعة مزيدة
ومنقحة

الموضـــوع : **الإسلام .. منهج حياة**
اسم الكتاب : **التجديد في الفكر الإسلامي**
عند ابن حزم وابن الجوزي
المـؤلـف : **الشيخ د.جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين**

الصف والإخراج : **مركز بدور للثقافة والترجمة**

عدد الصفحات : **١٣٠ صفحة = ٨,٥ ملزمة**
قياس الصفحة : **١٧ × ٢٤ سم**
رقـم الإيـداع: **٢٠٠٨/١٠٧٤**

شركة السماحة للنشر والتوزيع
الكويت

الإهـــداءُ نـــثراً

إلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ الَّتِي لَهَا مِنِ اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا ـ رَحِمَهَا اللهُ ـ بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ ـ فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ ـ خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي ـ رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا تُؤْذِي أَحَداً وَلَا شَيْئاً حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلى والدتي الَّتي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ ، وَلَا يَسَعنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ .

إلى والدتي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِل ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي .

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي .

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً .

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أسْهَمَ فِي إخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي المشْرِقِ وَالمغْرِبِ .

وَإنَّنِي إذْ أكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ .

الشَّيْخُ الدُّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

الإهـداءُ شـعـراً

أُمَّـــــاهُ كُنْت مُنِيـرَةً وَمَنَـارَةً
عُلْيَـا وَصَـرْحًـا ثَابِتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْت مَـدْرَسَةً تُعِـدُّ نُفُـوسَنَـا
لِصَنَائِعِ الـمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَــــدْ كُنْت لِلأَيْتَـامِ أُمًّــا بَــرَّةً
وَالجَارِ وَالْـمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْـتِنَا الأَخْلاقَ شَهْدًا سَلْسَلاً
تَدْنُو ثِمَارُ قُطُـوفِـهَـا لِلْجَـانِي
عَلَّمْـتِنَا الصَّـبْرَ الجَمِيلَ خَلِيـقَـةً
وَالقَــوْلَ لِلحُـسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

أَبَتَــاهُ قَـدْ رَبَّيْـتَنِي وَأَحَطْتَنِي
بِرِعَـايَةٍ فِـي غِـــبْطَـةٍ وَأَمَـانِ
وَفَّـرْتَ أَسْـبَـابَ السَّعَادَةِ وَالهَنَا
فَـجَـعَلْتَنِي أَسْـمُـو عَلَىٰ الأَقْرَانِ
فَـجَـزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْـرَ جَزَائِهِ
وَأُسْكِـنْتَ فِـي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُـلا
بِالفَــضْــلِ لا فَـظٍّ وَلا مَنَّــانِ
كَمْ ذَا تُقَـــابِلُ بِالسُّـــرورِ تَدَلُّلِي
بِمَـــحَـــبَّـةٍ وَبِرَأْفَـةٍ وَحَنَــانِ
أَحْـبَـبْـتَنِـي قَـرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي
بِالعِزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِـي اطْمِـــئْنَانِ

أَرَفِـيقَـتِـي كُنْت الشُّعَاعَ إِذَا دَجَـا
لَيْلُ الحَـــيَـــاةِ بِـمُظْـلِمِ الحِدْثَانِ
قَـدْ كُنْت خَيْـرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِـينَةٍ
فِي البِـرِّ عِنْدَ تَقَــاعُسِ الأَعْـوَانِ
الصَّـبْرُ فِـيكِ مَعَ الوَفَـاءِ سَجِـيَّـةٌ
بِتَــعَـــاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْزَانِ

يَا حَـــبَّـذَا **أَفْـلاذُ أَكْـــبَـادٍ** بِهَـا
كَـمُلَ الـمُـرَادُ وَقَرَّتِ العَـيْنَانِ
فَـاحْفَـظْ **مُعَـاذًا** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً**
أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَـــابِدَ الرَّحْـــمَنِ**
لاَ زَالَ **عَـــبْدُ اللهِ** فِي حِـفْظٍ وَلاَ
زَالُـوا جَـمِـيـعًـا غُـرَّةَ الفِـتْـيَـانِ

وَلْتَحْظَ **عَائِشَةُ وَفَاطِمَةُ** بِمَا قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةَ** يَا رَبَّنَا مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

يَا رَبِّ لاَ زَالَ **الجَمِيعُ** بِنِعْمَةٍ وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّىٰ الإِلهُ عَلَىٰ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشَّيْخُ الدكُتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

مُقَدِّمَة

هذه دراسة أزعم أنها جديدة، دراسة أسميتها «التجديد في الفكر الإسلامي عند ابن حزم وابن الجوزي» (١) **، وقد اخترت لها هذين العلمين مثالاً على التجديد والحيوية في فكرنا الإسلامي أجمع، والتربوي منه والإصلاحي على وجه الخصوص.**

أما عن العَلَمَيْنِ المُخْتَارَين فهما الإمامان العلمان العراقي المشرقي:

١ - أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي .

٢ . والعالم العلم، عالم الغرب في ذلكم الزمان: أبو محمد بن حزم الأندلسي.

أما عن **موضوعها** فهو الاصلاح الاجتماعي والتربوي، والتجديد الحضاري لكلا العلمين؛ إذ إنهما كانا رمزاً للباحث الاجتماعي (أو السسيولوجي) بلغة زماننا ويتبع هذا :

- ضلاعتهما في المنهج الوضعي؛ حيث التقرير والوصف للوقائع والظواهر الإنسانية في عصريهما.
- سَبْقُهما لِلْمُحْدَثِين على المستويين الإسلامي والغربي في كثير من النظريات الاجتماعية.
- قوة عارضتهما في تشخيص الواقع الإسلامي حينئذ، ووضعهما الأيادي على مواطن الضعف ومنابع الداء.
- براعتهما في وضع حلول وعلاجات وطرح نظريات ومبادئ وأطر واقعية اجتماعية تربوية إسلامية . . معاً في دفع الداء والصعود بالمجتمع إلى خطه الصحيح من التقدم في ظل حضارة الإسلام.

وهذا ما سيظهر للقارئ الواعي في هذه الدراسة، حيث سعينا للكشف عن كثير

---

(١) هذه الدراسة طبعت سابقًا ـ ط . الأولى ـ تحت عنوان : «أربعون العراق والأندلس» .

من العناصر السابقة كلٌّ في سياقه، سعياً للتنبيه على جلالة وخطر موقع هذين العالمين العلمين، ودفعاً لطلاب العلم المتخصصين للتبحر أكثر وأكثر في أطراف ما طرحنا.

منهجنا في الدراسة:

نهجنا في هذه الدراسة منهج التحليل والمقارنة، بما يميزنا عن باقي سلسلة التربويات، حيث سعينا لتحليل الفكر السسيولوجي (١) والسيكلوجي (٢) لكل من ابن الجوزي وابن حزم، وقارنا بينهما وبين محدثينا ومعاصرينا من علماء الشرق والغرب على سبيل التنبيه.

واستشهدنا على ذلك من خلال بعض الدراسات الأكاديمية المعتمدة وخاصة في حالة ابن حزم الأندلسي؛ لأنه كان أوفر حظاً في الدراسة من سميه ابن الجوزي.

وسعينا كذلك لوضع مبادئ، والجزم بنتائج ـ بناءً على شواهد الدراسة ـ تصب جميعها في صالح الفكر الإسلامي وسبقه للفكر الغربي في عالم الوعي الاجتماعي الواقعي، على سبيل التشخيص وعلى سبيل العلاج كما سيأتي.

وقد نهجنا النهج التالي في عموم البحث:

١ - **أفردنا كل عالم على حدة في قسمين متوازيين من أقسام الدراسة**، حتى لايستغرقنا المقام ـ في مقارنة بعضهما مع البعض الآخر ـ عن الأهم في استخلاص السمات الاجتماعية لكل واحد منهما على حدة، ومقارنة بالعلماء الآخرين ممن يشار إليهم بالبنان.

٢ - **عمدنا إلى وضع معطيات ومبادئ ونتائج الدراسة في أربعين مقالاً هو مجموع الدراسة**، كما عمدنا إلى الموازنة بين العالمين.. فخصصنا لكل واحد منها عشرين مقالاً، وعليه فهناك «عشرون مقالاً عراقية تبحث في ابن الجوزي» ويوازيها «عشرون أندلسية تبحث في ابن حزم».

٣ - **اعتمدنا على حرية البحث في الاختيار من مؤلفات ومصنفات كل من العالمين بما يناسب موضوع الدراسة**، فلم نلتزم مصنفاً مفرداً لأحدهما،

---

(١) الاجتماعي. (٢) النفسي.

بل زاوجنا بين مجموع مصنفاتيهما بما يناسب المقام . . إلاَّ أن نظرنا كان مصوبـًا نحو كتابي : «صيد الخاطر لابن الجوزي» ، و«مداواة النفوس» لابن حزم .

٤ ـ **اعتمدنا كذلك حرية المقارنة** وتبصر أوجه التشابه بين العالمين المسلمين وغيرهما من علماء الشرق والغرب ؛ خاصة من القدماء والمحدثين بحسب الموضوع المبحوث ، كما يظهر هذا جلياً لدىٰ ابن حزم .

٥ ـ **اعتمدنا في الترجيح على ما ذهب إليه بعض الدارسين لكلا العالمين،** وعلىٰ ما خلصت إليه دراستنا بحسب ما تقتضيه الشواهد المشبوهة في الدراسة .

٦ ـ **أكثرنا من ذكر الألفاظ الاجتماعية والنفسية** بما يتعارف عليه المتخصصون المعاصرون ، فتجد ألفاظًا مثل : (سسيولوجي ـ سيكلوجي ـ برجماتزم ـ وضعي ـ معياري . . إلخ) .

وسعينا للكشف عن معاني هذه المصطلحات من خلال سياقها العام دون عمد للدخول في جوهر ودلالة كل مصطلح منها علىٰ طريقة المتخصصين ؛ إذ إن الدراسة تخاطب غير المتخصصين في المقام الأول .

هذا ونسأل الله القبول والتوفيق فيما صبونا إليه . .

والعفو والمغفرة فيما زل فيه القلم . . وانزلقت إليه القدم . .

والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

أولاً

التجديد في الفكر الإسلامي عند ابن الجوزي

تقدمة
العشرينية الجوزية

هذه عشرون مقالة تحليلية يمكن تسميتها بالعشرين الجوزية، وإن شئت فقل: «العشرون البغدادية» ولا عليك أن تقول : «العشرون المشرقية» نسبة للمشرق، وتقابلاً مع العشرين الأندلسية القادمة ـ إن شاء الله.

وهي مقالات متتابعات تتحدث جميعها عن منهج الإصلاح عند ابن الجوزي، المصلح الاجتماعي، والإمام المجدد في عصر بوادر الأفول، حيث طلائع الحملات الصليبية على الشرق، ومقدمة الحملات التتارية عليه، إيذانًا بانهيار صرح الخلافة الإسلامية الشامخ، بل قل: كانت بداية انحدار وانحسار المد الإسلامي الحضاري.

وفي هاتيك الأجواء الصاخبة، وبداية الانحدار نهض ابن الجوزي في وجه البدعة والركدة، والهمود والجهل الذي طوق العالم الإسلامي وحاضرته بغداد آنئذٍ، فكانت هذه اللمحات المنهجية التي حرصنا أن نأتي بها تماثلاً لحال زماننا مع بعض من حال زمانه، وسعياً لاستنهاض همم الدعاة والمصلحين للثورة الفكرية على الجهل، ودفعاً للقومية الواحدة على التخلف، ودعوة للتبصر والتفكر والتأسي بمناهج المصلحين من أمثال إمامنا ابن الجوزي ـ رحمه الله.

وعليه .. فقدجاءت هذه المقالات التحليلية النقدية لفكر الإمام المصلح ابن الجوزي محاولة قراءة فكره، والتأطير لمنهجه الإصلاحي من خلال بعضٍ من كتبه الفكرية الفذة التي تركها وعلى رأسها:

- تنبيه الغمر على مواسم العمر.
- اللطائف.
- أخبار الحمقى والمغفلين.

ـ صيد الخاطر .

ـ الأذكياء .

ـ تلبيس إبليس .

ـ لفتة الكبد في نصيحة الولد . . . وغيرها من كتبه الأخرىٰ .

وسيلاحظ القارئ الكريم روح المقارنة في كتاباته مع كتابات المصلحين المحدثين، ومع مصلحي الغرب سعيًا لِتَبَصُّرِ العلاقات والاتفاقات والمفارقات المنهجية في خطوط أولئك المفكرين جميعًا.

والله أسأل التوفيق والقبول سبحانه ، إنه علىٰ كل شيء قدير .

١ - ملامح عريضة لحياة ابن الجوزي

شخصيته :

ابتداراً لحديثنا عن ابن الجوزي المصلح الاجتماعي والتنويري نستطيع أن نلمس أهم ملامح شخصيته في فكره وفي وسمه ورسمه ؛ لنرسم له صورة شاملة كلية وموجزة :

«صورة واضحة من خلال ما وصف به ، وما حُكي عنه ، صورة تتناسب فيها المقادير ، وتتلاءم فيها الألوان ، لا تناقض فيها ولا اضطراب ، صورة رجل ذكي عاقل ، أحرز خلاصة العلم النقي ، ووهب حياته للدفاع عن دينه وتعاليمه ، وأخلص وجهته لله ، فلم يجبن ولم ينافق ، ولم يبتغ بعلمه وقلمه عرض الحياة الدنيا»(١) .

ولوضوح ذلك دعونا ندلف معًا إلى وصف علماء عصره له، فهذا ابن العماد الحنبلي يحكي من صفاته فيقول عنه - في قوة تأثيره في أتباعه وتوازن انفعالاته وحركاته، وهي دلالة وسطية في طبعه، لا شك أنها ستنعكس على فكره، واهتمامه بصحته من حيث «مطعمه في قصد، ولباسه في غير عجب» . يقول:

«كان ابن الجوزي لطيف الصوت ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئًا ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة .

وكان يراعي حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه حدة ، يعتاض عن الفاكهة بالفاكهة ، لباسه الأبيض المطيب ، وله مداعبات حلوة .

(١) انظر : مقدمة صيد الخاطر ص٩ ، ط١ ، المكتبة العلمية ، بيروت د . ت .

ورغم يتمه إلا أنه نشأ في نعمة، بعيداً عن الضيق والشظف، ولذا كان ينفر من الخشونة وضعة الحال»(١) .

خواطره وقيمتها التربوية والإصلاحية:

تعد هذه الخواطر والتسجيلات الفكرية خطوطًا عريضة في منهج إصلاح ابن الجوزي؛ لأنها علامات مشرقة، وومضات مضيئة اتسعت لتشمل :

١ - وصف الظواهر الاجتماعية في عصره:

وذلك من خلال الملاحظة والرصد والتتبع، ولكنه رصد «الملاحظ المثالي»، الملاحظ الواعي الذي يبصر ويتبصر ما يرى، فلا يمر على هاتيك الظواهر «صمًا وعميانًا».

٢ - تفسير اجتماعي وسيكلوجي لنفسيات أهل عصره من السادة النبلاء، ومن أواسط الناس وعامتهم:

يحاول تحليل فعالهم وردها إلى مؤثراتها وعواملها الأولية بما يعد (منهجًا اجتماعيًا) من الطراز الأول في هذا الوقت لا يقل عن منهج العلامة الاجتماعي الأول ابن خلدون في مقدمته (في الجانب التطبيقي خاصة)(٢) .

٣ - وضع قوانين عامة لتصرفات الناس وضبط أحوالهم في هاتيك القوانين بعد ملاحظتها واستقرائها :

وهذا مفتاح الإصلاح؛ إذ هو ملاحظة الظواهر ووصفها وتفسيرها وضبطها في قانون أو عدة قوانين تمهيداً للتنبؤ بها، ومن ثم التحكم فيها، وهذا مدخل جديد في الدعوة «مدخل اجتماعي علمي»، ولذا فقد بنى على هذا منهجه في الإصلاح

---

(١) انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ترجمة أبو الفرج ابن الجوزي، مقدمة صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٩ ، ٢٠ .

(٢) انظر: ابن خلدون (مقال في المنهج التجريبي)، للدكتور محمود السعيد الكردي، ص١٣ و٥١، ط١، المنشأة العامة للنشر ـ طرابلس (ليبيا) ١٩٨٤م.

والضبط الاجتماعي، حيث ظفر منهجه بصلاحية في عصره وحتىٰ الآن.

أما في عصره فيكفي ما وصف به مجالسه وإصلاحاته الفكرية؛ إذ نشأت له في ذلك ملكة عجيبة، وبديهة حاضرة، وتاب علىٰ يده الآلاف، وحضر مجالسه الوزراء والحكام، ويقول ـ رحمه الله ـ عن نفسه: «ولقد تاب علىٰ يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم علىٰ يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل»[1].

وقد كان مجلسه يقدر في بعض الأحيان بمائة ألف، ويروىٰ أن الخليفة المستضيء قد حضر مجلسه مرات من وراء الستر.

أما عن خواطره الاجتماعية نفسها، فقد حرص بذكائه علىٰ تسجيلها بعدما تمرن عليها، وأحسن توظيفها وتطبيقها علىٰ تلك الشرائح الاجتماعية من محبيه وسامعيه، وكم فتح الله عليه فيها؛ حيث يقول: لما كانت الخواطر تجول في تَصَفُّح أشياء تَعْرِض لها، ثم تَعْرِض عنها فتذهب، كان من أولىٰ الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسىٰ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**قيدوا العلم بالكتابة**»[2].

وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه، ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حسابي، فأنثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيداً ـ لصيد الخاطر ـ والله ولي النفع، إنه قريب مجيب.

(١) انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي.

(٢) أخرجه الحاكم (٣٥٩) والطبراني في الكبير (٧٠٠)، وقال الهيثمي في الزوائد (١/ ٣٨١) «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٣٤).

٢ ـ العقل والتنوير عند ابن الجوزي

١ ـ النص والعقل :

لست أكون مبالغًا لو قلت : إن الإصلاح عند ابن الجوزي ينبعث أساسًا من أطروحة عريضة مفادها ومبدؤها (صقل العقل وتهيئته وتمرينه ؛ ليحسن فهم النص ، ويربطه بجديد الوقائع وقابل الحوادث) .

إذن مهمة الإصلاح لديه هي مهمة محورية ثنائية جماعها:

١ ـ النص الصحيح .

٢ ـ العقل الصريح .

ووظيفة ثلاثية تكمن في:

١ ـ (وفاق العقل والنص) كمبدأ .

٢ ـ ربطه بوقائع الأحداث .

٣ ـ التقدم به إلى استجلاء وقائع المستجدات من الأحداث .

ولهذا قال ابن الجوزي في مطلع كتابه «الأذكياء» : « فإن أجل الأشياء موهبة العقل ، فإنه الآلة في تحصيل معرفة الإله ، وبه تضبط المصالح ، وتلحظ العواقب ، وتدرك الغوامض ، وتجمع الفضائل » .

ولما كان العقلاء يتفاوتون في موهبة العقل ، ويتباينون في تحصيل ما يتقنه من التجارب والعلم ، فقد جمع ابن الجوزي كتابًا في «أخبار الأذكياء» الذين قويت فطنتهم ، وتوقد ذكاؤهم لقوة جوهرية عقولهم ؛ **وذلك ابتغاء أهداف:**

أحدها: معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم .

والثاني: تلقيح ألبَاب السامعين ؛ إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة ، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللب ، فسماع أخباره تقوم مقام رؤيته ،

كما قال الرضي :

فَاتَنِـي أَنْ أَرَى الدِّيَـارَ بِطَـرْفِـي فَلَعَـلِّي أَعِـي الدِّيَـارَ بِسَمْعِـي»(١)

ومن هنا نلاحظ مفهوم التنوير لدى ابن الجوزي المادي والوضعي، والذي نادىٰ به علماء ومصلحو الفكر الإسلامي قبل فلاسفة القرن الثامن عشر، قرن تنوير المادة وتدمير الوحي من أمثال فولتير ورسو . . ومن لف لفهم، وحذا حذوهم في الإلحاد واستبعاد الوحي من توجيه مسيرة العباد .

وإذا علمنا أن فلاسفة الغرب الأُوَل منذ القرن السابع عشر الميلادي بدؤوا بحوثهم بذكر العقل بوصفه آلة للمعرفة، ومدخلاً للتحضر والتقدم، تبين لنا وعي علمائنا من السلف بقيمة العقل، وأهميته في مشروع الإصلاح الاجتماعي .

وهذا بحث مركز في فلسفة ابن الجوزي التنويرية ومرتكزها المقدم (العقل)، الذي يستهدي بالنص، ويوافقه ويرافقه علىٰ أساس أنه مبصر كالعين، غير أنه لايستقل برؤية إلا بالضياء، وهذا ما يكفله له النص .

إذن يمكن التعبير عن فلسفة التنوير عند ابن الجوزي في المعادلة الفكرية التالية:

عاقل بصير + نص منير = تحضر وتقدم

ويسنح لنا المقام أن نبدأ هذه الفلسفة العريضة لابن الجوزي بما يلي :

أولاً: تعريف العقل (٢):

وفرَّق فيه ابن الجوزي بين معانٍ ثلاثة : (الذهن ــ الفهم ـ الذكاء)، ثم ضبطها كالآتي :

---

(١) كتاب الأذكياء لابن الجوزي : ص٥، بتصرف يسير، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة : بيروت، ط ٤، ١٩٨٠م .

(٢) انظر : ذم الهوىٰ، لابن الجوزي ص٥، تحقيق : مصطفىٰ عبدالواحد، تقديم : الشيخ الغزالي، ط . دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٢م .

- **حد الذهن:** قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء .
- **حد الفهم:** جودة التهيؤ لهذه القوة .
- **حد الذكاء:** جودة حدس من هذه القوة تقع في زمان قصير غير ممهل، فيعلم الذكي معنى القول عند سماعه، وقال بعضهم : حد الذكاء سرعة الفهم وحدته، والبلادة جموده .

وقال الزجَّاج : الذكاء في اللغة تمام الشيء، ومنه الذكاء في السن وهو تمام السن، ومنه الذكاء في الفهم وهو أن يكون فهمًا تامًا سريع القبول، وذكيت النار إذا أتممت إشعالها، وقولهم : فلان ذكي معناه كامل الفطنة تامها، من ذلك قول العرب قد ذكت النار تذكو إذا تم وقودها، ويقال : أذكيتها أنا إذا أتممت وقودها .

ويقال : «مسك ذكي إذا كان تام الطيب، كامل نفاذ الريح » .

قال جميل :

صادتْ فؤادي بعينيها ومبتسمٍ ... كأنه حين أبدتْه لنا بَرَدُ

عَذْبٌ كأنَّ ذَكِيَّ المسك خالطه ... والزنجبيلُ وماءُ المُزْنِ والشَّهَدُ[1]

(١) انظر : الأذكياء ص١٢، وانظر : ذم الهوى ص٥ وما بعدها .

٣ـ فضل العقل وماهيتـه

١ ـ فضل العقل:

للعقل فضائل جمَّة عددها العلماء من المشارقة والمغاربة، وذكر فيه ابن الجوزي آثاراً، بعضها مرفوع وبعضها الآخر موقوف.

ونورد هنا بعضًا منها.. والتبعة عليه (١):

أ ـ عن كريب مولى ابن عباس قال: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزتي وجلالي لا أجعلك إلا فيمن أحب، وماخلقتُ شيئًا هو أحبُّ إليَّ منك»(٢).

ب ـ عن وهب بن منبه قال: «إني وجدت فيما أنزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مئة جاهل فيجرهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لا ينال منه شيئًا من حاجته».

وقال وهب: «لإزالة الجبل صخرة صخرة وحجراً حجراً أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل؛ لأنه إذا كان مؤمنًا عاقلاً ذا بصيرة، فهو أثقل على الشيطان من الجبال، وأصعب من الحديد، وإنه ليزاوله بكل حيلة، فإذا لم يقدر أن يستزله قال: يا ويلي مالي ولهذا لا طاقة لي بهذا ويرفضه، ويتحول إلى الجاهل فيستأسره ويتمكن من قيادته، حتى يسلمه إلى الفضائح التي يتعجلها في عاجل الدنيا؛ كالجلد والرجم والحلق وتسخيم الوجوه والقطع والصلب، وإن الرجلين

---

(١) حبذا مراجعة كتاب: المنار المنيف، لابن قيم الجوزية، ففيه مبحث مختصر عن أحاديث العقل ودرجة صحتها.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقل وفضله (١٥)، والطبراني في الكبير (٨١٠٢) والأوسط (٧٢٤١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦٠): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمر بن أبي صالح، قال الذهبي: لا يعرف». وقال ابن القيم في المنار، ص ٢٥: «أحاديث العقل كلها كذب»، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ٩٨): «موضوع».

ليستويان في أعمال البر، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد إذا كان أحدهما أعقل من الآخر»(١) .

وعن وهب بن منبه أن لقمان عليه السلام قال لابنه : «يا بني، اعقل عن الله ـ عز وجل، فإن أعقل الناس عن الله ـ عز وجل ـ أحسنهم عملاً، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده، يا بني، ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من العقل»(٢) .

٢ ـ ماهية العقل:

وهي مسألة جد عويصة لا يزال الخلاف قائماً بشأنها ـ حتىٰ الآن ـ في الفلسفات الغربية، وفي عالم المفكرين من العرب وغيرهم، وعموماً هي وجهات نظر ومسألة نظرية، وهذا حاصل ما قاله ابن الجوزي بعدما نقل كلاماً للسلف في ذلك:

نقل إبراهيم الحربي عن أحمد بن حنبل أنه قال: «العقل غريزة» .

ومثله عن الحارث المحاسبي.

ورُوِيَ عن المحاسبي أيضاً أنه قال: « هو نور» .

وقال آخرون: «هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات» .

وقال قوم: «هو نوع من العلوم الضرورية وهو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات» .

وقال آخرون: «هو جوهر بسيط» .

وقال آخرون: « هو جسم شفاف » .

واعلم أن التحقيق في هذا أن يقال هنا :

الاسم ـ أعني العقل ـ ينطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ :

- **أحدها** : الوصف الذي يفارق به الإنسانُ البهائم، وهو الذي أراده من قال: غريزة، وكأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء.
- **والثاني** : ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

(١، ٢) الأذكياء ص٧ ـ ٩ بتصرف.

- **والثالث** : علوم تستفاد من التجارب تسمى عقلاً .
- **والرابع** : أن منتهى قوته الغريزية إلى أن تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة .

والناس يتفاوتون في هذه الأحوال، إلا في القسم الثاني الذي هو العلم الضروري .

وأما اشتقاق هذا الاسم أعني العقل : فقال ثعلب : أصله الامتناع، يقال : عقلت الناقة إذا منعتها من السير ، وعقل بطن الرجل إذا حبس .

هذه هي جملة آراء ابن الجوزي في العقل، وهي صحيحة في عمومها ، وإن كنا نتوقف عند بعض الآثار التي جاءت غير مسندة، على اعتبار أنها آراء تمثل أصحابها ، ولا تقوم بها الحجة .

وكذلك لنا تساؤل عن محل العقل ، وهل هذا أمر محسوم أو مجرد رأي . . ؟ إذ إنها مسألة نظرية لا تجدي .

٤ ـ رائعة تفهم ابن الجوزي لأحوال المجتمع (الاجتماعية والنفسية) (السسيولوجية والسيكولوجية)

وهذه هي أولى خطوات نجاح الداعي، ولم لا .. ؟!

وقد بدأ المصلحون الغربيون من أمثال : «سان سيمون» اليهودي ، و«أوجست كونت» الوضعي الإلحادي ، و«دوركايم» اليهودي الملحد ، و«ليفي بريل» الملحد ، و«ماكس فيبر» البروتستنتي ، وخاتمتهم «كارل ماركس» المادي الجدلي الديالكتيكي(١)!! وكلهم من علماء الاجتماع الكبار ، بل من أرود رواده مطلقًا في الغرب .

بدؤوا مشاريعهم (بإتقان فهم عصرهم من خلال ملاحظته على المستوى الاجتماعي والنفسي والاقتصادي والتاريخي) .

وعلم الاجتماع وعلم النفس هما قطبا رحى العلوم الإنسانية ، فقاموا بتسجيل ظواهر المجتمع ووصفوها ، ووضعوا لها قواعد تعد بمثابة قوانين السسيولوجيا الرئيسة في تفسير الحراك الاجتماعي وتسييرها .

عمومًا .. نعود إلى ابن الجوزي الذي برع في هذا كل براعة ، ومن خلال تحليلاته ومقالاته المتعددة التي تبين عن براعته في فهم الواقع الاجتماعي والنفسي ، وتجاوزه إلى الوصف وضبط الوقائع .

---

(١) انظر : عن هؤلاء وأمثالهم : موسوعة الفلاسفة اليهود للدكتور حسن حنفي ، ط مكتبة مدبولي ، مصر ، وانظر : في الرد على هؤلاء كتابات الأستاذ أنور الجندي ، والدكتور محمد البهي ، وخاصة كتابه : «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» ، ط . مكتبة وهبة ، القاهرة .

١ ـ يقول عن ظاهرة الغفلة (تحليلها وأسبابها):

« قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر، عادت القسوة والغفلة! فتدبرت السبب في ذلك، فعرفته.

ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها، **لسببين**:

- **أحدهما**: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها كإيلامها وقت وقوعها.
- **والثاني**: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان؟

وهذه حالة تعم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر؛ فمنهم من يعزم بلا تردد، ويمضي من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه: نافق حنظلة!

ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانًا، فهم كالسنبلة تميلها الرياح!

وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدارسماعه، كماء دحرجته على صفوان..!»(١).

٢ ـ ظاهرة الألم (وكيف تجعلها نعمة لا نقمة؟)

وهنا يفلسف ابن الجوزي البلاء والآلام، ويعرض لحال النفس في تسخطها، ويلمس خيطًا يجمع ما بين تجاوز الألم وإدراك الصحة والثواب معًا، بحس سيكلوجي بارع، فيقول في فصل بعنوان (علاج البلاء: الصبر والدعاء):

« للبلاء نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل، فلا بد للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضي أوان البلاء.

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص١١.

فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل، كما أن المادة إذا انحدرت إلىٰ عضو فإنها لن ترجع، فلا بد من الصبر إلىٰ حين البطالة، فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع.

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع إلا به، إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلىٰ الحكيم، ويقطع المواد التي كانت سبباً للبلاء، فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة.

فأما المستعجل فمزاحم للمدبِّر، وليس هذا مقام العبودية، وإنما المقام الأعلىٰ هو الرضا، والصبر هو اللازم.

والتلاحي بكثرة الدعاء نعم المعتمد، والاعتراض حرام، والاستعجال مزاحمة للتدبير، فافهم هذه الأشياء فإنها تهون البلاء» (١).

ويلتمس ابن الجوزي فلسفة عامة من هذا في الصبر وفلسفته عموماً، فيقول:
«ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر، إما عن المحبوب أو علىٰ المكروهات، وخصوصاً إذا امتد الزمان، أو وقع اليأس من الفرج، وتلك المدة تحتاج إلىٰ زاد يقطع به سفرها.

والزاد يتنوع من أجناس:

- **فمنه** تلمح مقدار البلاء، وقد يمكن أن يكون أكثر.
- **ومنه** أنه في حال فوقها أعظم منها، مثل أن يبتلىٰ بفقد ولد وعنده أعز منه.
- **ومن ذلك** رجاء العوض في الدنيا.
- **ومنه** تلمح الأجر في الآخرة.
- **ومنه** التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه، والأجر من الحق عز وجل.
- **ومن ذلك** أَنَّ الجزع لا يفيد، بل يفضح صاحبه إلىٰ غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر.

---

(١) انظر: صيد الخاطر ص١٢.

فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه، ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل» (١) .

٣ ـ مجاذبة طبائع النفوس بين الدنيا والآخرة :

وهذه قاعدة اجتماعية هامة (في جواذب الطبع) تدل على حذق رؤيته وثقابة بصيرته! جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة، ثم هي من داخل، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع. وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى؛ لما يسمع من الوعيد في القرآن.

وليس كذلك؛ لأن مثل الطبع في ميله إلى الدنيا كالماء الجاري يطلب الهبوط، وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلُّف، ولهذا أجاب معاون الشرع: بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل، فأما الطبع فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يغلب، إنما العجب أن يُغلب(٢).

٤ ـ برجماتزم الطاعة (٣) :

قد تبدو الكلمة غريبة، إلا أنها من دواعي الربط العقلي بين الفلسفة المعروفة بالفلسفة البرجماتية عند بيرس ووليم جيمس وديوي، والتي أثرت في أمريكا، وآتت أكلها على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، لكن بعيد عن الجفاف الذي يلازم المصطلحات التي لا تظهر للعامة في صورة مطبقة يأتي ابن الجوزي في براعة تنبهه لهذه البرجماتية على مستوى الفكر الديني فيطبقها في نظريته التفضيلية للعلوم، فيقول: «أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم، فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق

---

(١) انظر: صيد الخاطر ص١٥٦ .

(٢) المرجع السابق، ص١٢ .

(٣) كلمة برجماتزم: كان أول من جعلها مذهباً في الفلسفة والحياة الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس، ولعلها الفلسفة الحاكمة لمعظم دول أوربا هذه الأيام ـ انظر: الدراسة الأكاديمية المخطوطة، رسالة دكتوراه بعنوان: «القيم الخلقية بين المنهج الوضعي والمنهج المعياري».

أبداً، وإن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة، واعتبر هذا في أهل زماننا، فإنك ترىٰ الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغني، ويعرف حكم الله تعالىٰ في الحوادث ما لا يعرفه النحرير العالم المتقن من باقي العلماء.

وكم رأينا في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة من لايعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع، وربما جهل علم ما ينويه في صلاته، مع أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم، فإنه لا يكون فقيهاً حتىٰ يأخذ من كل علم بحظ، ثم يتوافر علىٰ الفقه عز الدنيا والآخرة»[1].

فلله تلك اللفتات الجوزية البارعة السباقة لكل خير وبر، والتي يجمعها ابن الجوزي بمقالة رائعة جماعها «حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله»، وهكذا فإن طلب المصلحة أو المنفعة أو مصالح العباد أو ملذات الحياة ـ بالحق ـ هي من أهداف التشريع، ومن ثم فلا بأس بقولنا: برجماتزم الطاعة، والذي التفت إليه مذهب الإمام مالك خاصة، وتوسع فيه الطوفي ونظر له ابن الجوزي، وأبان عن دقائقه ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين، وغيرهم من القدماء والمحدثين.

٥ ـ ابن الجوزي والفلسفات الأبيقورية:

لله ابن الجوزي في حسن وصفه وتفسيره، ومن ثم نقده وتأطيره وإبانته عن فلسفة اللذة التي ضل فيها قديماً (الأبيقوريون) ومثلهم أبو نواس الشاعر الإباحي من المسلمين، وبنتام، وجون استيرت مل، من الغربيين المحدثين، حيث أبدع ابن الجوزي في بيان رؤية الشرع والكشف عن أبعادها في موضوع اللذة، فقال: أشد الناس جهلاً منهوم باللذات، واللذات علىٰ ضربين: مباحة ومحظورة.

فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هو مهم من الدين، فإذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم، ثم لا تكاد تصفو في نفسها، بل مكدراتها ألوف، فإذا تصور عدمها بعد انقضائها، وبقاء هذه الألوف المكدرة،

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص١٦٢، ١٦٣.

صار التصوُّر منغصًا للهوىٰ محزنًا للنفس، فإذا أنفت أنفت من الأسف علىٰ الدوام المستبعد، وعرفت أنها لذة تغر الغمر، وتهدم العمر، وتديم الأسىٰ، ومع هذا فالمنهوم كلما عب من لذة طلب أختها، وقد عرف جناية الأولىٰ وخيانتها، وهذا مرض العقل، وداء الطبع، فلا يزال هذا كذلك إلىٰ أن يُختطف بالـموت، فيلقىٰ علىٰ بساط نـدم لايستدرك.

فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر، ثم لا يهتم بآخرته التي لذتها سليمة من الشوائب، منزهة عن المعائب، دائمة الأمد، باقية ببقاء الأبد، وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك، وعمران هذه بتخريب تلك.

فوا عجباه لعاقل حصيف حسن التدبير، فاته النظر في هذه الأحوال، وغفل عن التمييز بين هذين الأمرين، وإن كانت اللذة معصية، انضم إلىٰ ما ذكرناه عار الدنيا، والفضيحة بين الخلق، وعقوبة الحدود، وعقاب الآخرة، وغضب الحق ـ سبحانه.

بالله، إن كانت المباحات التي تشغل عن تحصيل الفضائل تُذَمُّ فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل؟

نسأل الله ـ عز وجل ـ يقظة تحركنا إلىٰ منافعنا، وتزعجنا عن خوادعنا، إنه قريب مجيب الدعاء[١].

(١) انظر: صيد الخاطر، ص٣٥.

٥ - قوانين ابن الجوزي في الإصلاح
(الاجتماعي والنفسي)
(السيسيولوجي والسيكولوجي)

١ - قانون (الرغبة - ونوازعها):

وهو من روائع ابن الجوزي التي سبق بها المدارس النفسية المعاصرة في ملاحظاتهم وتحليلاتهم ورؤاهم السيكلوجية، سواء من مدارس علم النفس السلوكية، أو الاتجاه الباراسيكلوجي، أو مدرسة التحليل النفسي بريادة زعيمها اليهودي فرويد، أو السيد الوضعي واطسن(١).

يقول ابن الجوزي في ذكر «الرغبات»: «شكا لي بعض الأشياخ فقال: قد علت سني، وضعفت قوتي، ونفسي تطلب مني شراء الجواري الصغار، ومعلوم أنهن يردن النكاح وليس في، ولا تقنع مني النفس بربة البيت إذ قد كبرت.

فقلت له: عندي جوابان:

■ **أحدهما**: الجواب العامي: وهو أن أقول: ينبغي أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت إليه، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على إبقاء حقها فإنها تبغضك، فإن أجهدت استعجلت التلف، وإن استبقيت قوتك غضبت هي، على أنها لا تريد شيخًا كيف كان.

قال علي بن عبيد الله: أنشدنا محمد التميمي:

أَفِقْ يا فؤادي من غرامِك واستمعْ ... مقالةَ محزونٍ عليكَ شفيقِ
عَلِقْتَ فتاةً قلبها متعلِّقٌ ... بغيرك فاستوثقت غيرَ وثيقِ
وأصبحت موثوقاً وراحتَ طليقةً ... فكم بين موثوقٍ وبينَ طليقِ

فاعلم أنها تعد عليك الأيام، وتطلب منك فضل المال لتستعد لغيرك، وربما قصدت حتفك، فاحذر فإن السلامة في الترك، والاقتناع بما يدفع الزمان.

---

(١) انظر دراسة: (القيم الخلقية بين المنهج الوضعي والمنهج المعياري).

■ **والجواب الثاني** فإني أقول: لا يخلو أن تكون قادراً على الوطء في وقت أو لا تكون، فإن كنت تقدر في أوقات على ذلك، ورأيت من نفسك توقًا شديدًا، فعليك بالمراهقات فإنهن ما عرفن النكاح، وما طلبن بالوطء، واغمرهن بالإنفاق وحسن الخلق، مع الاحتياط عليهن، والمنع من مخالطة النسوة.

وإذا اتفق وطء فتصبر عن الإنزال ريثما تقضي المرأة حاجتها.

واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة، واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح، وقبح صورة الفعل، وألفت قلبها إلى ذكر الصالحين، ولا تُخْلِ نفسك من الطيب والتزين والكياسة والمداراة والإنفاق الواسع.

فهذا ربما حرك الناقة للمسير مع خطر السلامة» (١) .

٢ ـ ظاهرة (تراكم الخبرات وصراع الفكر والرغبة):

وهي ناتجة عن الانفصام في الحياة، وتصارع القيم في النفس، ومن ثم ذهب فيلسوف الإصلاح الاجتماعي إلى ملاحظات عبر عنها بقوله: «رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى ما عثر به، فينظر إليه، طبعًا موضوعًا في الخلق، إما ليحذر منه إن جاز عليه مرة أخرى، أو لينظر ـ مع احترازه وفهمه ـ كيف فاته التحرز من مثل هذا.

فأخذت من ذلك إشارة وقلت: يا من عثر مراراً، هلا أبصرت ما الذي أعثرك فاحترزت من مثله، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة.

فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته كيف عثر مثلي مع احترازه بمثل ما أرى، فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني والذنب الفلاني؟

كيف غرك زخرفٌ تعلمُ بعقلك باطنه، وترى بعين فكرك مآله؟

كيف آثرت فانيًا على باق؟ كيف بعت بِوَكْسٍ؟

كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة؟

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ٣٣٤، ٣٣٥ .

آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلها ظهر[١] ، وتنكيس رأس أمسىٰ بعيد الرفع ، ودموع حزن علىٰ قبح فعل ما لمددها انقطاع .

وأقبح الكل ، أن يقال لك : بماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وهذا علىٰ ماذا؟

يا من قلب الغرور عليه الصنجة[٢] ، ووزن له والميزان راكب » [٣] .

ثم يقول في موطن آخر موضحًا لفكرته بمزيد تفصيل ودقة ملاحظة:

« من نازعته نفسه إلىٰ لذة محرمة ، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها ، وسمع هتاف العقل يناديه : ويحك لا تفعل؟ فإنك تقف عن الصعود ، وتأخذ في الهبوط ويقال لك : ابق بما اخترت ، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلىٰ ما قيل له ، لم يزل في نزول» ، وكان مثله في سوء اختياره كالمثل المضروب :

أن الكلب قال للأسد : يا سيد السباع ، غَيِّر اسمي فإنه قبيح . .

فقال له : أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم .

قال : فجربني ، فأعطاه شقة لحم .

وقال : احفظ لي هذه إلىٰ غد وأنا أُغير اسمك .

فجاع وجعل ينظر إلىٰ اللحم ويصبر .

فلما غلبته نفسه قال : وأي شيء باسمي؟ وما كلب إلا اسم حسن ، فأكل ، وهكذا الخسيس الهمة ، القنوع بأقل المنازل ، المختار عاجل الهوىٰ علىٰ آجل الفضائل .

فالله الله في حريق الهوىٰ إذا ثار ، وانظر كيف تطفئه ، فرب زلة أوقعت في بئر بوار[٤] ، ورب أثر لم ينقلع ، والفائت لا يُسْتدرك علىٰ الحقيقة .

فابعد أسباب الفتنة ، فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم والسلام»[٥] .

لله ما أبصرت وما قلت يابن الجوزي.

---

(١) لا تقوىٰ علىٰ حملها أي دابة .

(٢) المثقال : الذي يوزن به الأشياء ويقال لها : سنجة بالسين وهي لفظ معرب .

(٣) انظر : صيد الخاطر ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤) بئر هلاك .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

٦ ـ فلسفة إقناع النفس (وبرمجتها)

فلسفة إقناع النفس :

كثيرًا ما نسمع عن دروس ومحاضرات ودورات برمجة النفس، وشهادات البرمجة التي حظي أهلها بها، ونالوا بها درجات الدكتوراه، وإن كان هذا الأمر مشتهرًا في الغرب ودليلاً على سبقه السيكلوجي وتحضره الاجتماعي، فمن غير الصواب التغاضي عن سبق إسلامنا في هذه المجالات، بل إن القرآن الكريم كله ليعد برنامجًا إيمانيًا يبرمج النفوس على الإيمان، ويعصمها عن الهوى والشرك والخذلان..

ولئن سألت كيف هذا؟

قلت : انظر إلىٰ ابن الجوزي يجيبك عن سؤلك . . بقوله :

أعجب الأشياء مجاهدة النفس ؛ لأنها تحتاج إلىٰ صناعة عجيبة .

فإن أقواماً أطلقوها فيما تحب ، فأوقعتهم فيما كرهوا .

وإن أقواماً بالغوا في خلافها حتىٰ منعوها حقها ، وظلموها .

وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم ؛ فمنهم من أساء غذاءها ، فَأَثَرُ ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها .

ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس ، وآلت إلىٰ ترك فرض أو فضل ، من عيادة مريض ، أو بر والدة .

وإنما الحازم من تَعْلَمُ منه نفسه الجد وحفظ الأصول ، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه .

فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده ، فإنه لا ينبسط إليه الغلام ، فإن انبسط ، ذكر هيبة المملكة .

فكذلك المحقق يعطيها حظها ، ويستوفي منها ما عليها .

٧ ـ تابع قوانين ابن الجوزي في برمجة النفس

منهج البرمجة الذاتية للنفس :

وهذا المنهج معمول به وإن اختلفت المصطلحات فمن قبل قالوا : « ما عاتب المرء الكريم كنفسه» ولـم تقف البرمجة هنا إلىٰ حد المعاتبة وجلد النفس والوقوف بها دائماً عند حد التعجيز ، بل المعاتبة التي تولد مع النفس شيئًا من المصالحة التي تبنىٰ علىٰ «ملاحظة العواقب وقياس درجات الأسباب والنتائج» .

يقول : « من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها ، نال خيرها ، ونجا من شرها .

ومن لم ير العواقب ، غلب عليه الحس ، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السلامة ، وبالنصب ما رجا منه الراحة .

وبيان هذا في المستقبل ، يتبين بذكر الماضي ، وهو أنك لا تخلو من أن تكون عصيت الله في عمرك ، أو أطعته .

فأين لذة معصيتك؟ وأين تعب طاعتك؟ هيهات رحل كُـلٌّ بما فيه!

فليت الذنوب إذا تخلت خلت!

وأزيدك في هذا بيانًا : تمثل ساعة الموت ، وانظر إلىٰ مرارة الحسرات علىٰ التفريط ، ولا أقول : أين ذهبت حلاوة اللذات ؛ لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً ، فبقيت مرارة الأسىٰ بلا مقاوم .

أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟ فراقب العواقب تسلم ، ولا تمل مع هوىٰ الحس فتندم »[1] .

---

(١) انظر : صيد الخاطر ، ص ١٢ ، ١٣ .

٨ ـ قانون السلامة

« من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة، ومن ادعىٰ الصبر وُكِلَ إلىٰ نفسه.

ورب نظرة لم تناظر!

وأحق الأشياء بالضبط والقهر: اللسان والعين.

فإياك أن تغتر بعزمك علىٰ ترك الهوىٰ، مع مقاربة الفتنة، فإن للهوىٰ مكايد، وكم من شجاع في صف الحرب اغتيل، فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه!

واذكر حمزة مع وحشي [١]:

فَتَبصَّر ولا تَشِم كلَّ بَرْقٍ	**رُبَّ برقٍ فيه صواعقُ حَيْنِ**
واغضضِ الطرفَ تسترحْ من غرام	**تكتسي فيه ثوبَ ذلٍ وشَيْنِ**
فبلاءُ الفتى موافقةُ النفس	**وبدء الهوى طموحُ العَيْنِ»** [٢]

* * *

(١) يعني: قصة مقتل أسد الله حمزة علىٰ يد وحشي ثم توبة وحشي بعدها.

(٢) انظر: صيد الخاطر، ص١٤ .

٩ ـ قانون: المعاقبة بالسلب

وهي وسيلة ترهيب لردع العباد عن مخالفة سنن الشرع وعن المعاصي، وهو من أنواع الردع الخفية التي انتبه ابن الجوزي لها، وراح يرصدها من خلال نفسه، ومن خلال أحوال من حوله، وملاحظته للنص القرآني ولدلالة الحديث النبوي..

ولنسمع ماذا يقول في لغة ساحرة جد عميقة:

« أعظم المعاقبة ألا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك (أن) يقع السرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حاله لا يفوز بطاعة.

وإني تدبرت أحوال العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة، فالعالم منهم، يغضب إن رد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مراءٍ.

فأول عقوباتهم، إعراضهم عن الحق شغلاً بالخلق، ومن خَفِيِّ عقوباتهم، سلب حلاوة المناجاة، ولذة التعبد، إلا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم، بل أجلىٰ، وسرائرهم كعلانيتهم، بل أحلىٰ، وهممهم عند الثريا، بل أعلىٰ.

إن عرفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة، أنكروا، فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أفلاك السماء.

نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم »[١].

---

(١) صيد الخاطر، ص١٤، ١٥ وفي مثل هذا الشأن هناك الكثير مما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه: جامع العلوم والحكم، ولطائف المعارف.

١٠ ـ تأملات في مسارح الأحداث

كأنما فيها استشراف لواقع العمل الإسلامي المعاصر

١ ـ ظاهرة التنافس (المذموم) للحركات الإسلامية:

وهي من الظواهر السيئة ؛ إذ إنها تبدد جهود العمل الإسلامي وتؤثر سلبًا على انتشاره على المستوى الأفقي امتداداً، وعلى المستوى الرأسي عمقًا وصلابة .

وسبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة، كأنما يطلع ابن الجوزي من خلال نفاذ بصيرته على وارد الأحداث وقابلها .

وها هو ذا يحقق هذه المسألة ويلاحظها بعين المصلح الاجتماعي، وفكر العالم الشرعي، وبصيرة المنظِّر الفكري، فيقول: « تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون، كما قال عز وجل: ﴿ **وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا** ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [2] .

وقد كان أبو الدرداء: يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعوا لهم كل ليلة وقت السحر» .

والأمر الفارق بين الفئتين: «أن علماء الدنيا، ينظرون إلى الرياسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، أما علماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوفونه، ويرحمون من بلي به»[3] .

---

(١) الحشر : ٩ . (٢) الحشر : ١٠ .

(٣) انظر : صيد الخاطر ص١٧ .

٢ ـ سفاهات باسم الإسلام :

يرحم الله ابن الجوزي هذا الملاحظ الاجتماعي والمصلح البارع سابق عصره وزمنه بفكره، لله هو في استبصاره لمعاشر المفسدين في الأرض باسم الدين، والذين يصدون الناس عن الإسلام من حيث لا يدرون؛ لسوء فهم وضلال فكر، واعوجاج مسير وتطبيق.

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله:

«بكرت يوماً أطلب الخلوة إلىٰ جامع الرصافة، فجعلت أجول وحدي وأتفكر في ذلك المكان، ومن كان به من العلماء والصالحين، ورأيت أقواماً قد جاوروا فيه، فسألت أحدهم: منذ كم أنت ها هنا؟

فأومأ إليَّ قريب من أربعين سنة.. فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ، وجعلت أتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة، فأخذت النفس تحسن ذلك، وتذم الدنيا والاغترار بها.

فأقبل العلم ينكر علىٰ النفس، ونهض الفهم لحقائق الأمور، وموضوع الشرع يقوي ما قاله العلم، فتخلصت من ذلك أن قلت للنفس: اعلمي أن هؤلاء علىٰ ضربين:

- **الضرب الأول**: منهم من يجاهد نفسه في الصبر علىٰ هذه الأحوال، فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم والعمل وطلب الولد، ونفع الخلق، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم، فتحدث له من نفسه حالة يشابه فيها الوحش، فتؤثر الانفراد لنفس الانفراد.

وربما يبس الطبع، وساء الخلق، وربما حدث من حبس مائه المحتقن سُمِّيَّة أفسدت بدنه وعقله، وربما أورثته الخلوة وسوسة، وربما ظن أنه من الأولياء، واستغنىٰ بما يعرفه، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات، وربما ظن أن الذي هو فيه الغاية، ولا يدري أنه إلىٰ الكراهة أقرب.

فإن رسول الله ﷺ نهىٰ أن يبيت الرجل وحده، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده، ونهىٰ عن التبتل وهذا تبتل، ونهىٰ عن الرهبانية وهذا من خَفِيٍّ خداع إبليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه.

- **والضرب الثاني**: شيوخ قد فنوا، فانقطعوا ضرورة؛ إذ ليس لأحدهم مأوىٰ، فهم في مقام الزَّمْنَىٰ(١) .

وإن كان الضرب الأول قد قطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب، وتعلقت هممهم بفتوح يطرق عليهم الباب، فرضوا بالعمىٰ بعد البصر، وبالقيد بعد الإطلاق، فقالت لي النفس: لا أرضىٰ لك هذا الذي تقوله، فإنك إنما تميل إلىٰ إيثار نكاح المستحسنات والمطاعم المشتهيات، فإذا لم تكن من أهل التعبد، فلا تطعن فيهم.

فقلت لها: إن فهمت حدثتك، وإن كنت تقلدين صور الأحوال فلا فهم لك.

أما المستحسنات فإن المقصود من النكاح أشياء: منها طلب الولد، ومنها شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤذية، وكمال خروجها لا يكون إلا بوجود المستحسن.

واعتبر هذا بالوطء دون الفرج، فإنه يخرج من الفضلات ما لا يخرج بالوطء في الفرج، وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها فتدري أين هي.

كما يؤمر القاضي بالأكل قبل الحكم، ويُنهىٰ عن الحكم وهو غضبان أو حاقن.

وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد إتمام النطفة التي تخلق منها.

ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف في السفر، وذلك يعين علىٰ سيرها.

وأما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها، أو لنفس لذاتها.

---

(١) الزَّمِنْ: المريض بمرض مزمن دائم.

وإنما المراد إصلاح الناقة لجمع همها، ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها.

وإذا تأملت حال السلف الأول رأيت من هذا عجبًا، فإن النبي ﷺ اختار لنفسه عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت مستحسنة.

وكان **لعلي** رضي الله عنه أربع حرائر، وسبع عشرة سرية مات عنهن.

وقبل هذه الأمة فقد كان **لداود ـ عليه السلام ـ** مئة امرأة، **ولسليمان ـ عليه السلام ـ** ألف امرأة، فمن ادعىٰ خللاً في هذه الطرق، أو أن هؤلاء آثروا هواهم، وأنفقوا بضائع العمر في هذه الأغراض وغيرها أفضل، فقد ادعىٰ علىٰ الكاملين النقصان، وإنما هو الناقص في فهمه لا هم.

وقد كان **سفيان الثوري** إذا سافر ففي سفرته حمل [1] مشوية وفالوذج، وكان حسن المطعم.

وكان يقول: «إن الدابة إذا لم تحسن إليها لم تعمل».

وهذه الفنون التي أشرت إليها إن قصدت للحاجة إليها، أو لقضاء وطر النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها، فكله قصد صحيح لا ينكر عليه من يقوم ويقصد في ركعات لا يفهم معناها، وفي تسبيحات أكثر ألفاظها ردية.

كلا ليس إلا العلم الذي هو أفضل الصفات، وأشرف العبادات، وهو الآمر بالمصالح، والناطق بالنصائح.

ثم منفعة العلم معروفة، وزهد الزاهد لا يتعدىٰ عتبة بابه، وقد قال ﷺ:

«لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمر النَّعم» [2].

---

(١) **الحمل**: ولد الخروف.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٦١)، كلهم من حديث سهل ابن سعد رضي الله عنه.

ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجوارح على التي لا تصيد، والطين الذي يعمل منه ما ينتفع به على الطين في المطلع .

وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح، وأكثر المتزهدين جهلة يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح .

فكم فوتت العزلة علماً يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر، والله الموفق »(١) .

(١) انظر: صيد الخاطر ١٣٠ ـ ١٣٢ .

١١ ـ المُتعالِمُون .. وجهال الدعاة

لطالما أفسد الناسُ وخاصة المتسبين، كثيراً من رسوم الدين باسم الجهالة قديمًا وحديثًا، ولابن الجوزي أفكاره الرائدة في تحليله لحالة الفكر الإسلامي في عصره، مما أفرز نتيجة صحيحة يمكن تعميمها على حالة الفكر الإسلامي المعاصر.

ولنسمع إليه في صيحته ضد هؤلاء المتعالمين المنتسبين إلى الإسلام، إذ كان محللاً وناقداً، عالمًا بمواطن نقده ومواضعه، فيقول: «نظرتُ في قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ما أعرف شيئًا مما كنا عليه اليوم إلا القبلة، فقلت: واعجبًا كيف لو رآنا اليوم وما معنا من الشريعة إلا الرسم.

والشريعة هي الطريق، وإنما تعرف شريعة رسول الله ﷺ إما بأفعاله أو أقواله.

وسبب الانحراف عن طريقه ﷺ : إما الجهل بها، أو الخروج عليها، فيجري الإنسان مع الطبع والعادات، وإنما اتخذ ما يضاد الشريعة طريقًا، وقد كانت الصحابة شاهدته وسمعت منه، فقل أن ينحرف أحد منهم عن جادته، إلا أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى بعض الانحراف لميل الطباع، فإنه قد يعرف الإنسان الصواب، غير أن طبعه يميل عنه.

وما زالت الأحاديث المنقولة عن الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ يقل العمل بها والنظر فيها إلى أن أُعْرِض عنها بالكلية في زماننا هذا، وجهلت إلا النادر، واتخذت طرائق تضاد الشريعة، وصارت عادات، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة.

وإذا كان عامة من ينسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة، فكيف العوام؟! ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا في الأصول والفروع.

فالأصوليون تشاغلوا بالكلام، وأخذوا من الفلاسفة وعلماء المنطق.

ودخلت أيدي الفروعيين في ذلك، فتشاغلوا بالجدل، وتركوا الحديث الذي يدور عليه الحكم. .

ثم رأىٰ القصاص أن النَّفَاق بالنِّفاق[١]، فأقبل قوم منهم علىٰ التلبيس بالزهد، ومقصودهم الدنيا.

ورأىٰ جمهورهم أن القلوب تميل إلىٰ الأغاني، فأحضروا المطربين من القراء، وأنشدوا أشعار الغزل، وتركوا الاشتغال بالحديث، ولم يلتفتوا إلىٰ نهي العوام عن الربا والزنىٰ، وأمرهم بأداء الواجبات.

وصار متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلىٰ والمجنون، والطور وموسىٰ، وأبي يزيد والحلاج، والهذيان الذي لا محصول له».

ثم هاهو ذا يذهب في استقرائه لأحوال الناس خاصهم وعامهم، جاهلهم ومتعالمهم، وعالمهم ومقامهم، ومكانهم من الشرائع حق للأمراء فيقول ويصيح ويتساءل في لغة العالم عن مبدأ الإصلاح، وعن جواهر أسباب الجهالة: «وأما الأمراء فجروا مع العادات، وسموا ما يفعلونه من التنطع سياسات لم يعملوا فيها بمقتضىٰ الشريعة، وتبع الأخير في ذلك المتقدم.

فأين الشريعة المحمدية؟

ومن أين تعرف مع الإعراض عن المنقولات؟

نسأل الله عز وجل التوفيق للقيام بالشريعة، والإعانة علىٰ رد البدع إنه قادر»[٢].

وهكذا أحسن ابن الجوزي الوصف والتحليل والتعليل، وانتهىٰ بتساؤل له دلالته في عالم الإصلاح، فمن أين لنا بتواصل جهود التحليل والنقد، ومن ثمَّ البناء؟!

---

(١) **النفاق** بفتح النون: الرواج والانتشار، وبالكسر: فعل المنافق.

(٢) انظر: صيد الخاطر، ٣١٨، ٣١٩.

١٢ـ من أيديولوجيات الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي

(حول قشور ولباب الفكر الإسلامي)

نعم نحن بلا ريب في حاجة إلى إصلاح للفكر الإسلامي، وإلى تجديد يبدأ إجمالاً (بالنقد والتحليل الدقيق وتعرف مواطن الزلل ومواضع الخلل).

وقد نهج ابن الجوزي هذه الاستراتيجية الاصلاحية من خلال منهج التحليل عمومًا بكل جوانبه فتارة مبتدراً إليه بالوصف، وتارة يدخل إليه بالتحليل، وتارة يصدر فرضيات عامة محلها إلى النص، وهاهو ذا يدخل هنا بمدخل نقدي عام في تبصر ظاهرة العلماء والمتعالمين، فيقول في فصل بعنوان: «علماء القشور وعلماء اللباب»، فيقول: « رأيت جماعة من العلماء يتفسحون[1] ويظنون أن العلم يدفع عنهم، وما يدرون أن العلم خصمهم، وأنه يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب.

وذاك لأن الجاهل لم يتعرض للحق، والعالم لم يتأدب معه.

ورأيت بعض القوم يقول: أنا قد ألقيت منجلي بين الحصادين ونمت، ثم كان يتفسح في أشياء لا تجوز.

فتفكرت فإذا العلم الذي هو معرفة الحقائق، والنظر في سير القدماء، والتأدب بآداب القوم، ومعرفة الحق وما يجب له، ليس عند القوم.

وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم، وليس كذلك العلم النافع.

---

(١) يتفسحون: يتوسعون ويترخصون.

إنما فهم الأصول ومعرفة عظمته وما يستحقه، والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته، والتأدب بآدابهم، وفهم ما نقل عنهم، هو العلم النافع الذي يجعل أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال.

ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر، فبلغني أنه قال: «قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد، والآن قد ضعفت»، فقلت: ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سببًا لرد الكل؛ لأنه قد رأىٰ أنه عمل مع الحق شيئًا، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات، ففي حق نفسه فعل.

وما مثله إلا كمثل من وقف يكدي(١)، فلا ينبغي أن يمن علىٰ المعطي.

وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل «صلة بن أشيم» الذي إذا رآه السبع هرب منه، وهو يقول إذا انقضىٰ الليل عند صلاته: يا رب أجرني من النار، أو مثلي يسأل الجنة!

وأبلغ من ذا قول عمر: «وددت أن أنجو كفافًا لا لي ولا عليَّ».

وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة: «أترجو لمثلي أن ينجو من النار».

وقول أحمد: لا بعد.

فأنا أحمد الله عز وجل؛ إذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم، وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم، فإني قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين علىٰ ما يخرس لسان الانبساط، ويمحو النظر إلىٰ كل فعل.

وكيف أنظر إلىٰ فعلي المستحسن، وهو الذي وهبه لي، وأطلعني علىٰ ما خفي عن غيري؟! فهل حصل ذلك بي أو بلطفه؟ وكيف أشكر توفيقي إلىٰ الشكر؟

ثم أي عالم إذا سبر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه، هذا في صورة العلم، فدع معناه.

وأي عابد يسمع بالعباد، ولا يجري في صورة التعبد، فدع المعنىٰ.

---

(١) يكدي: يلح في المسألة.

نسأل الله عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا، حتىٰ لا يبقىٰ للعجب بمحتقر ما عندنا أثر في قلوبنا.

ونرغب إليه في معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تتعلق بالإدلال، ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الأعمال التي بها تزهو حتىٰ تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها، إنه قريب مجيب» (١).

علماء السوء:

كلمة مريبة غريبة دخيلة علىٰ الفكر الإسلامي الحق، أقل ما يقال فيها هو: كيف يجمع بين كلمة علماء وكلمة سوء؟ إنه مركب دخيل إذ ما كان العلم إلا لدفع السوء، ولا يستحق العالم هذه الكلمة (عالم) إلا بأمر ينفي عن نفسه السوء.

ويا ويحنا ويا ويلنا إن اجتمع هذا المركب الدخيل عالم وسوء تبًا، ثم تبًا.

وهذا مدخل لابن الجوزي في سبيل رصد ظاهرة علماء السوء، وكشف ماورائها، ولنسمع ماذا يقول:

« قدم علينا بعض الفقهاء من بلاد الأعاجم، وكان قاضيًا ببلده، فرأيت علىٰ دابته الذهب ومعه أنوار الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات.

فقلت: أي شيء أفاد هذا العلم؟! بل والله قد كثرت عليه الحجج.

وأكبر الأسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف، وما كان عليه رسول الله ﷺ، إنهم يجهلون الجملة، ويتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة، وليس يعنيهم سماع حديث ولا نظر في سير السلف.

ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلىٰ التزيِّي بزيهم، وربما خطر لهم أن هذا قريب، وإن لم يخطر لهم، فالهوىٰ غالب بلا صادّ.

نعم ربما خطر لهم أن يقولوا: هذا يحتمل، ويغفر في جانب تشاغلنا بالعلم، ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم.

---

(١) السابق ٣١٤، ٣١٥.

ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلىٰ العلم من يستصحب المردان، ويشتري المماليك، وما كان يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة.

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء، وهو علىٰ هذه الحالة.

فالله الله يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة، إياك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالبة، فإنك إن ترخصت بالدخول في بعضها جرك الأمر إلىٰ الباقي، ولم تقدر علىٰ الخروج لموضع إلف الهوىٰ.

فاقبل نصحي، واقنع بالكسرة، وابعد عن أرباب الدنيا، فإذا ضج الهوىٰ فدعه ولا تجبه.

وربما قال لك: فالأمر الفلاني قريب، فلا تفعل، فإنه لو كان قريباً فهو يدعو إلىٰ غيره ويصعب التلافي.

فالصبر الصبر علىٰ شظف العيش، والبعد عن أرباب الهوىٰ، فما يتم دين إلا بذلك.

ومتىٰ وقع الترخُّص حمل إلىٰ غيره، كالشاطئ إلىٰ اللجة، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، ووجه أصبح من وجه، وإنما هي أيام يسيرة»[1].

---

(١) صيد الخاطر ٣٦٣، ٣٦٤.

١٣ ـ فرائـد جوزيـة

١ ـ سياسة النفس وتربيتها :

لعل من العسير على المرء أن يسوس نفسه، وأن يبرمجها، وأن يسايرها؛ إذ يقع الناس ما بين مقصر ينقاد لشهوات وشبهات النفس، وما بين متشدد يسعى لتقويض نفسه ووأد شهواتها، وما بين هذا وذاك مراتب ومنازل شتى.

وابن الجوزي يبدع في برمجة النفس،من حيث فهمها وفهم تشوقها ومنازل غيرها ومطامعها..

وها هو ذا يبدع في رصد جملة شهواتها، والتي يسميها مطامعًا، ولله دره لما أبدع في رصد مسألة طالما تشوَّقتها النفس وهي «ملاحظة ومتابعة وترصد اللذة» فيقول:

« كنت أسمع علي بن الحسين الواعظ يقول على المنبر: والله لقد بكيت البارحة من فعل نفسي.

فبقيت أنا أتفكر وأقول: أي شيء قد فعلت نفس هذا حتى يبكي؟

هذا رجل متنعم له الجواري التركيات، وقد بلغني أنه تزوج في السر بجملة من النساء، ولا يطعم إلا الغاية من الدجاج والحلوى.

وله الدخل الكثير، والمال الوافر، والجاه العريض، والأفضال على الناس.

وقد حصَّل طرفًا من العلم، واستعبد كثيراً من العلماء بمعروفه، وراحته دائمة الندى، فما الذي يبكيه منها؟

فتفكرت، فعلمت أن النفس لا تقف عند حد، بل تروم من اللذات ما لا منتهى له، وكلما حصل لها عرض، برد عندها، وطلبت سواه، فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النقص، ويرق الجاه، ولا يحصل المراد.

وليس في الدنيا أبله ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا، وليس في الدنيا على الحقيقة لذة، إنما هي راحة من مؤلم.

فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية، فمال إليها ومالت إليه، وعلم سترها ودينها، أن يعقد الخنصر على صحبتها.

وأكثر أسباب دوام محبتها ألا يطلق بصره، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها، فإن الطمع في الجديد ينقص الخَلِقْ(١) وينقص المخالطة، ولا يستر عيوب الخارج، فتميل إلى المشاهد الغريبة، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب، كما قال الشاعر:

والمرءُ ما دَام ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا في ... أَعْيُنِ الحورِ موقوفٌ على الخَطرِ

يَسُرُّ مقلَتَهُ ما ضرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مرحبًا بسرورٍ عادَ بالضَّررِ

ثم تصير الثانية كالأولى، وتطلب النفس ثالثة، وليس لهذا آخر، بل الغض عن المشتهيات، ويأس النفوس من طلب المستحسنات، يطيب العيش مع المعاشر».

ثم يؤكد ابن الجوزي على أهمية ملاحظته وقيمة نصحه فيقول في شدة:
«ومن لم يقبل هذا النصح، تعثر في طرق الهوى، وهلك على البارد، وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل، وفي العار الحاضر، فإن كثيراً من المستحسنات لسن بصينات، ولا يقي التمتع بهن العار الحاصل.

ومنهن المبذرات في المال، ومنهن المبغضة للزوج، وهو يحبها كعابد صنم.

وأبله البله الشيخ الذي يطلب صبية، ولعمري إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا، كما قال القائل: « فعلت بنفسي النساء الصغار».

ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع، فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع، والشيخ لا يقدر، فإن حمل على نفسه لم يبلغ مرادها، وهلك سريعًا.

ولا ينبغي أن يغتر بشهوة الجماع، فإن شهوته كالفجر الكاذب »(٢).

---

(١) الخَلِق: القديم أو البالي.

(٢) انظر: السابق نفسه.

١٤ ـ استراتيجية عملية في التعامل مع الناس

هذه من براعات ابن الجوزي وحسن لحظه وتفهمه، وتبصره بالوقائع الاجتماعية، وسبره للظواهر السلوكية، وما أحوجنا إلى مثل هاتيك الاستراتيجيات في التعالق والتعامل مع الناس.

إذا كان الغرب يزهو بكتب جيمس وريتشارد كارلسون ودايل كارنيجي وغيرها من الكتب التي تعد أكثر الكتب مبيعًا في العالم. .

فها هو ابن الجوزي يسبق الجميع ببراعته في رصد ظواهر العلائق الاجتماعية، ولنسمع معًا مدخلاً رائعًا وجوهرة ثمينة في التعالق مع الناس، إذ يقول في وصف باسم «التجمل مع الناس» [1] : « قد ركب في الطباع حب التفضيل على الجنس، فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغي أن يتجلد بستر تلك النكبة، لئلا يرى بعين نقص، وليتجمل المتعفف حتى لا يُرى بعين الرحمة، وليتحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية.

وقد قال ﷺ لأصحابه حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى، فخاف أن يشمت بهم الأعداء حين ضعفوا عن السعي، فقال: « **رحم الله من أظهر من نفسه الْـجَلَـدْ**»، فأخذوا يرملون؛ **والرمل شدة السعي**.

وزال ذلك السبب وبقي الحكم، ليتذكر السبب فيفهم معناه.

واستأذنوا على معاوية وهو في الموت، فقال لأهله: أجلسوني، فقعد متمكنًا يظهر العافية، فلما خرج العواد أنشد:

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

وتجلُّدِي للشامتين أُريهِمُ أني لريبِ الدهرِ لا أتضعضعُ

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ

وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء؛ لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة.

وكان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

بلى، ثم نكتة ينبغي التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم، فأصابه عدوه بالعين، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة.

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع.

فإذا اجتمعت هذه الصفات، خيف من إصابة العين، فليكن الإنسان مظهراً للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين، ويعلم أنه في خير، وليحذر الإفراط في إظهار النعم؛ فإن العين هناك محذورة.

وقد قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿**لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾ (١)، وإنما خاف عليهم العين، فليفهم هذا الفصل، فإنه ينفع من له تدبر» ا. هـ.

وفي رائعة أخرى يقول ابن الجوزي عن حال الناس في فصل عقده بعنوان: «ما أقل الناس» (٢): «من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء، علم أن أكثر الناس على غير الجادة.

وإنما يمشون مع العادة، يتزاورون، فيغتاب بعضهم بعضاً، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه، ويحسده إن كانت نعمة، ويشمت به إن كانت مصيبة، ويتكبر عليه إن نصح له، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن، هذا كله يجري بين المنتمين إلى الزهد لا الرعاع.

---

(١) يوسف: ٦٧. (٢) انظر: صيد الخاطر، ص ٢٨٨، ٢٩٩.

فالأولىٰ بمن عرف الله سبحانه، وعرف الشرع، وسير السلف الصالح الانقطاع عن الكل، فإن اضطر إلىٰ لقاء منتسب إلىٰ العلم والخير، تلقاه وقد لبس درع الحذر، ولم يطل معه الكلام، ثم عجل الهرب منه إلىٰ مخالطة الكتب التي تحوي تفسيراً لنطاق الكمال»ا. هـ.

١٥ ـ هل إعراض الغرب عن الإسلام كِبْر.. أو جهل.. أو عناد.. ؟

سؤال يطرحه واقعنا بقوة في مقابل حملات التشهير بالإسلام، ومحاولة طمس الحقائق، بداية من حروب الصليب هناك في الماضي البعيد، حيث زعموا كل مزاعم الباطل على الإسلام، ثم في طيات حملات المستشرقين حديثاً.. ثم ها هو ذا يتواصل السير وتستتم المسيرة في التحالف الصهيومسيحي، واجتماع الغرب قاطبة على النيل من الإسلام، ووسمه بالعنف والإرهاب .

فيا تُرى هل هذا عن جهل؟ أم عن عناد وغيٍّ.. ؟! ويا تُرى ما جذور هذه الظاهرة الضاربة في القدم، وسبحان الله في قوله: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾(١) .

ولننظر إلى ابن الجوزي يحلل هذا الوضع في أصله البعيد منذ مطالع الإسلام، فيقول في فصل بعنوان : «هذه الحجب على العقل»:

«طال تعجبي من أقوام لهم أنفة، وعندهم كبر زائد في الحد، خصوصًا العرب الذين من كلمة ينفرون، ويحاربون، ويرضون بالقُلِّ والذل، حتى أن قومًا منهم أدركوا الإسلام فقالوا: كيف نركع ونسجد، فتعلونا إن ستاهنا؟

فقال رسول الله ﷺ: « **لا خير في دين ليس فيه ركوع**»(٢) .

ومع هذه الأنفة يذلون لما هم خير منه، هذا يعبد حجراً أصم، وهذا يعبد خشبة، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر، وإن هؤلاء لأخس من إبليس، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص، فقال: «أنا خير منه» وفرعون أنف أن يعبد شيئًا أصلاً.

فالعجب أن ذل هؤلاء المفتخرين المتكبرين لحجر أو خشبة، وإنما ينبغي أن

(١) النمل : ١٤ .
(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٢٦)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني.

يذل الناقص للكاملين، وقد أشير إلىٰ هذا في ذم الأصنام في قوله تعالىٰ: ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾(١).

والمعنىٰ أن لكم هذه الآلات المدرِكة وهم ليس لهم شيء منها، فكيف يعبد الكامل الناقص؟!

غير أن هوىٰ القوم في متابعة الأسلاف، واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم غطىٰ علىٰ العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور، ثم غطىٰ الحسد علىٰ أقوام، فتركوا الحق وقد عرفوه.

فأمية بن الصلت يقر برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: «لاأؤمن برسول ليس من ثقيف».

وأبو جهل يقول: «والله ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم ثم النبوة، فما بقي لنا؟».

وأبو طالب يرى المعجزات، ويقول: «إني لأعلم أنك علىٰ الحق، ولولا أن تعيرني نساء قريش لأقررت بها عينك».

ثم هاهو ذا يختم ملاحظته بما ينظم قيمه الإيمانية أجمع في قالب اللجأ والضراعة إلىٰ الله فيقول: «فنعوذ بالله من ظلمة الحسد، وغيابة الكبر، وحماقة الهوىٰ الذي يغطي علىٰ نور العقل، ونسأله إلهام الرشد، والعمل بمقتضىٰ الحق»(٢).

---

(١) الأعراف: ١٩٥.

(٢) انظر: المرجع السابق.

١٦ـ تساؤلات عصرية .. وإجابات جوزية

هذه تساؤلات واعية قصدنا طرحها على ابن الجوزي هذا الإصلاحي الكبير في عصره، وهي تساؤلات فكرية في مجالات ودوائر حياتية ومعرفية لا نزال نجتر أذيالها ونمضي في دروبها حتى الآن.

ولعل ابن الجوزي بسابق خبرته، وعلو دراسته، وارتفاع منهجيته في الدرس والتحليل أن يفيدنا في ذلك خير إفادة.

وليت مفكري الإسلام يبصرون تلك السعة الذهنية، ويتبصرون هذه الألمعية الجوزية، وهذه الموسوعية البارعة فيفيدون منها، ويضمون غيرها لها ويقيسون واقعهم ويتشوفون مستقبلهم فيخرجون من أفانين الفكر وبراعة الاستنتاج الشيء الكثير.

والله إننا في خطب عظيم قوامه وملاكه الانفتاح على الآخر، وضبط الثوابت، وتجديد المتغيرات والاعتبار بالسابقين والمحدثين حتى نخرج من تلك الأزمة الفكرية التي تعمنا.

عمومًا هذه التساؤلات والإجابات تعبر عن مضامين مانريد، وأفانين ما نرجو فإليها!

س١: هل يجوز الشماتة بالمخالفين ممن جار بهم الدهر، وحاق بهم العزل من ذوي السلطان المطاع وذوي الشوكة؟

قال[1]: «من الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح، فإنه لايؤمن أن يلي فينتقم.

وفي الجملة لا ينبغي أن تظهر العداوة لأحد أصلاً، فقد يرفع المحتقر، وقد يتمكن من لا يعد، بل ينبغي أن يكتم ما في النفوس من ضغن على الأعداء.

فالحازم من استعد له، وعمل عمل من لا يندم إذا جاءه.

واحذر من الذنوب فإنها كعدو مراصد بالجزاء.

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٥.

وادخر لنفسك صالح الأعمال؛ فإنها كصديق صدِّيق ينفع وقت الشدة.

وأبلغ من كل شيء أن يعلم المؤمن أنه كلما زاد عمله في الفضائل، علت مرتبته في الجنة، وإن نقص نقصت.

فهو وإن دخل الجنة في نقص بالاضافة إلىٰ كمال غيره، غير أنه قد رضي به ولا يشعر بذلك.

فرحم الله من تلمح العواقب، وعمل بمقتضىٰ التلمح، والله تعالىٰ الموفق».

س٢: يا بن الجوزي لقد كتبت كتابك (المنتظم) في ثمانية عشراً مجلداً تحدثت فيه عن الدول والملوك والأفراد والعباد والنظم والقيم فحدثنا عن مواعظ وقيم وخلاصات من هاتيك الخبرات العاليات.

قال(١): «قال الله ـ تعالىٰ ـ حكاية عن نبيه ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾(٢)، وقد انخرط جمع ممن يَتَّسم بالعلم في سلك المعاصي؛ لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم.

ورأينا خلقاً ممن جمعت فيهم كتابي المسمىٰ بالمنتظم، في تاريخ الملوك والأمم، اطلعت علىٰ سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعباً أذهب أديانهم، حتىٰ كانوا لا يؤمنون بالعقاب.

فمن الأمراء من يقتل ويقطع ويحبس بغير حق، ثم ينخرط في سلك المعاصي كأن الأمر إليه، أو قد جاءه الأمن من العقاب.

فربما تخايل: أن حفظي الرعايا يرد عني هذا؛ لأن الدنيا فخ والناس كعصافير، والعصفور يريد الحبة وينسىٰ الخنق.

قد نسىٰ أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلىٰ عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوىٰ، لا يلتفتون إلىٰ مشاورة العقل.

فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذاباً عظيماً.

---

(١) انظر: السابق، ص ٤٥٥، ٤٥٦. (٢) الأنعام: ١٥.

فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتني لم أكن، ليتني كنت ترابًا، فيقال له الآن: فوا أسفي لفائت لا يمكن استدراكه، ولمرتهن لا يصح فكاكه، ولندم لا ينقطع زمانه، ولمعذب عز عليه أمانه.

بالله ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها ويعول عليها.

ولا يمكن قبول مشاورتها إلا بعزيمة الصبر عما يشتهي.

فتأمل في الأمراء: عمر بن الخطاب وابن عبدالعزيز ـ رضي الله عنهما، وفي العلماء: أحمد بن حنبل ـ رحمة الله عليه، وفي الزهاد: أويس القرني.

لقد أعطوا الحزم حقه، وفهموا مقصود الوجود.

وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهىٰ.

وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب.

وليس العجب من ذاك، إنما العجب من مؤمن يوقن، ولا ينفعه يقينه، ويعقل العواقب ولا ينفعه عقله».

س٣: قلت[١]: «يا بن الجوزي، أيها العاقل الألمعي، لله درك من مصلح نحرير، وعالم كبير، لاحظنا من خلال كتاباتك ومساجلاتك قيامها على العقل، مستنيرًا بضياء الوحي سبقت بعقلانيتك الفذة كثيرًا من المحدثين ممن يشار لهم بالبنان من مثل: ديكارت - وليبنتز - وكروتشه - وغيرهم، وهم وإن كانوا عظامًا في مجالهم فذلك لهم مع احترازنا وتحفظنا على كثير من مبادئهم ومنطلقاتهم.

وها نحن ذا نفخر بعقلانيينا؛ كابن الجوزي، وابن حزم، والغزالي وابن تيمية، وغيرهم من أئمة الهدىٰ.

وهذه وقفة مع منهجية ابن الجوزي في توظيف العقل والفكر لصالح الدين والدنيا؛ إذ من منهج الفكر الإسلامي أنه يتعلم ليعمل لاليتسفسط ويجادل لذات الجدال، ولله دره لما ربط بين الخير والعقل، والشر والجهل، وطبق هذه الأطروحة في نظرة نافذة..

---

(١) انظر عن موقف هؤلاء الوضعيين دراسة: «القيم الخلقية بين المنهج الوضعي والمنهج المعياري».

فيقول: « تدبرت أحوال الأخيار والأشرار، فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر، وسبب فساد الأشرار إهمال النظر، وذاك أن العاقل ينظر فيعلم أنه لا بد من صانع، وأن طاعته لازمة، ويتأمل معجزات رسول الله ﷺ، فيسلم قيادته إلىٰ الشرع، ثم ينظر فيما يقربه إليه، ويزلفه لديه.

فإذا شق عليه إعادة العلم تأمل ثمرته، فسهل ذلك.

وإذا صعب عليه قيام الليل فكذلك.

وإذا رأىٰ مشتهىٰ، تأمل عاقبته فعلم أن اللذة تفنىٰ، والعار والإثم يبقيان، فيسهل عليه الترك.

وإذا اشتهىٰ الانتقام ممن يؤذيه، ذكر ثواب الصبر، وندم الغضبان علىٰ أفعاله في حال النصب، ثم لا يزال يتأمل سرعة مر العمر، فيغتنمه بتحصيل أفضل الفضائل، فينال مناه.

وأما الغافل فإنه لا يرىٰ إلا الشيء الحاضر، فمنهم من لم يتأمل في معنىٰ المصنوع وإثبات الصانع، فجحدوا وتركوا النظر، وجحدوا الرسل وما جاؤوا به، ونظروا إلىٰ العاجل، ولم يتفكروا في مبتداه ومنتهاه.

فليس عندهم من عرفان المطعم إلا الأكل.

ولو تأملوا كيف أنشئ؟ ولماذا جعل حافظًا للأبدان؟ لعرفوا حقائق الأمور.

وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون في عاقبتها، بل في عاجل لذتها.

وكم قد جنت عليهم من وقوع حد وقطع يد وفضيحة، فتعجيل اللذة يفوت الفضائل، ويحصل الرذائل، وسببه عدم النظر في العواقب، وهذا شغل العقل، وذاك المذموم شغل الهوىٰ.

نسأل الله عز وجل يقظة ترينا العواقب، وتكشف لنا الفضائل والمعائب، إنه قادر علىٰ ذلك»(١) .

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ٢٥٠ .

١٧ ـ جواهر المواعظ الجوزية

(علامات مضيئات في تاريخ الخطاب الوعظي في الفكر الإسلامي)

١ ـ من تفكر في عواقب الدنيا، أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق، تأهب للسفر:

« ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حاله ثم يغشاه! وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن.

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خُبئ لك.

تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم.

لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك ـ قبل الممات ـ مضجعك.

وقد شغلك نيل لذاتك، عن ذكر خراب ذاتك:

كأنَّك لم تسمْع بأخبارِ مَنْ مضى ... ولم تر في الباقينَ ما يصنعُ الدَّهرُ!

فإن كنت لا تدري فتلك ديارُهم ... محاها مجالُ الريحِ بعدكَ والقبرُ

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده، حتى نُزل!

وكم شاهدت والي قصر، وَلِيَه عدوُّه لما عُزِلَ» (١) !

٢ ـ فلسفة الزمان عند ابن الجوزي:

«رأيت عموم الناس يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا، إن طال الليل فبحديث لاينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر.

وإن طال النهار فبالنوم.

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ١٣.

وهم في أطراف النهار علىٰ دجلة أو في الأسواق .

فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر .

ورأيت النادرين قد فهموا معنىٰ الوجود ، فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل ، إلا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة ، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلىٰ الإخبار بالنافع هناك ، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم .

والغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لا مع خفير .

فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا !

فالله الله في مواسم السر ، والبدار البدار قبل الفوات .

واستشهدوا العلم ، واستدلوا الحكمة ، ونافسوا الزمان ، وناقشوا النفوس ، واستظهروا بالزاد .

فكأن قد حدا الحادي فلم يفهم صَوْتَه مَنْ وقع في الندم » (١) .

٣ ـ علو الهمة :

كلمة لها إيقاعها ، وسبيل عليها ضريبة ولها نتيجة ، ودرب مضيء يتلألؤ ، من أخذه بحقه فاز واجتاز وبلغ .

والله ما أحوجنا إلىٰ هامة السبيل ، وما أشد حاجتنا إلىٰ أن نمتاز ، ولله ابن الجوزي ذو الهمة العلية من كان يسف الطعام سفًا ؛ لأنه يفرق عن مضغه بقراءة خمسين آية ، فالله الله في كلامه وبيانه المدعوم بالتجربة والخبرة والنبوغ ولنسمع معًا بيانه ورائق وَصيَّته ونصحه إذ يقول : «من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها . . كما قال المتنبي :

وإذا كانت النفوسُ كِبَارًا تعبت في مرادِها الأجْسَامُ

وقال الآخر :

ولكلَّ جسمٍ في النُّحول بليةٌ وبلاءُ جسمي مِنْ تَفَاوتِ هِمَّتِي

---

(١) السابق ص ١٤٢ .

وبيان هذا أن من علت همته، طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل نهايته، وهذا لا يحتمله البدن.

ثم يرى أُمَّ المراد العملَ، فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب.

ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه.

ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم والبذل، ويمنع هز النفس عن الكسب من وجوه التبذل.

فإن هو جرى على طبعه من الكرم، احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك.

وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع بين أضداد، فهو أبدًا في نصب لاينقضي، وتعب لا يفرغ.

ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال، زاد تعبه وقوى نصبه، فأين هو ومن دنت همته؟ إن كان فقيهًا فسئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدثًا فسئل عن مسألة فقهية قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه: مقصر.

والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه، وقد أرت الناس عورته.

والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس، ولا يستقبح سؤالهم، ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى، وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثم فهم.

والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمة ألايقصر في شوطه، فإن سبق فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يلم » (١) .

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٤٥٦، ٤٥٧ .

١٨ ـ ابن الجوزي يقول فيعمل .. ويعمل بما يقول

لله ما كان من شأن ابن الجوزي علم وفهم وهمة عالية.. كان ـ رحمه الله ـ طماحًا لا يبرح عن تشاغل بعلم أو تسديد لفضل..

وهاهو ذا يحدثنا عن نفسه، وقد ذكر الذهبي أنه عدَّ له فوق الألف مصنف وقيل عنه: «ما عرفت أحداً في أهل الإسلام ألف مثل ما ألف هذا الرجل».

ولنسمع إلى ابن الجوزي يحدثنا عن همته العالية، وهو صاحب قولة: «لو أن النبوة تدرك بالاجتهاد، لرأيت الولاية عارًا» .. يقول [(١)]:

« خلقت لي همة عالية تطلب الغايات، بلغت السن وما بلغت ما أملت، فأخذت أسأل تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال، فأنكرت عليَّ العادات وقالت: ما جرت عادة بما تطلب، فقلت: إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات، وقد قيل لرجل: لنا حويجة لا ترزؤك، فقال: هلا طلبتم لها سفاسف الناس؟ فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا، فلم لانطمع في فضل كريم قادر؟».

وقد علم عن ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ العلم والعمل والعبادة والزهادة، ويكفي أن نعرف عدد من تاب على يديه، ومن حضر مجالس وعظه من العامة والخاصة حتى الأمراء.

ويكفي شاهداً على عمله ما ترك من الآثار والكتابات التي كادت تنيف على ألف مصنف بشهادة الإمام الذهبي وغيره من أئمة التراجم.

ثم يكفي القبول الذي وضع له بين الأنام إذ لا تزال كتبه قائمة مباركة لدى الخاصة ومثقفي العامة يفيد منها كل من قرأها كل بقدر قِرَاءَتِهِ ومعرفته.

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص ٢٥١.

١٩ ـ ملامح من الفكر الاقتصادي لدى ابن الجوزي

(بين ابن الجوزي .. وماكس فيبر)

وإذا كان بعض مفكري الغرب من مثل ماكس فيبر الألماني عالم الاجتماع المشهور يفتخر بدور المسيحية وخاصة البروتستنتية من أتباع مذاهب يوحنا كالفن.. في تكوين رأس المال ووضع بذور الرأسمالية الحديثة إذ نسب إليها الفضل أجمع في ذلك في كتابه : «الروح البروتستنتية وتطور الرأسمالية»(١) .

فمن حقنا كمسلمين أن نفخر بنصوص ديننا التي تعلمنا آلية إدارة الدنيا والآخرة معاً والتي دعت بجلاء مطلق إلى العمل والإنتاج، قال تعالى : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾(٢)، وقال تعالى : ﴿ **فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ (٣) .

وكذلك نفخر بمؤرخينا ومفكرينا الذين فصلوا دعوات النصوص للعمل والإنتاج، وتكوين رأس المال في غير مضارة للناس .

هذا ابن الجوزي الفقيه الواعظ الإمام الزاهد يدعو صراحة إلى العمل والإنتاج، وتكوين رأس المال باسم الشرع والواقع، فيقول: « اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع »، فمن ذلك حفظ ماله، وطلب تنميته والرغبة في زيادته؛ لأنه سبب بقاء الإنسان وضمان كرامته . **ولذلك نهى عن التبذير فيه، فقيل له:**

﴿ **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ (٤) .

أي : قواماً لمعاشكم فاعلم أنه سبب لبقائه .

وقال ـ عز وجل : ﴿ **وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾(٥) .

---

(١) انظر دراسة : (القيم الخلقية بين المنهج الوضعي والمنهج المعياري) فصل : (القيم الإسلامية) .
(٢) الـمُلك : ١٥ . (٣) الجمعة : ١٠ .
(٤) النساء : ٤ . (٥) الإسراء : ٢٩ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٢) .

ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾(٥) .

وجعل المال نعمة، وزكاته تطهيراً، فقال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٦) .

وقال ﷺ : « **... يا عمرو نعما بالـمال الصالح للرجل الصالح** »(٧) .

وقال ﷺ أيضًا : « **ما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر** » (٨) .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلىٰ التجارة ، ويترك رسول الله ﷺ فلاينهاه عن ذلك .

وكان جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتجرون ، ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب ، مات وخلَّف مالاً ، وكان يحتكر الزيت ؛ أي ينفرد ببيعه .

وما زال السلف على هذا، ثم قد تعرض نوائب كالمرض فيحتاج إلىٰ شيء من المال ، فلا يجد الإنسان بداً من الاضطراب في طلبته ، فيبذل عرضه أو دينه .

ثم إن للنفس قوة بدنية عند وجود المال ، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية .

---

(١) الإسراء : ٢٦ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

(٣) البقرة : ٢٤٥ . (٤) البقرة : ٢٦١ .

(٥) الحديد : ١٠ . (٦) التوبة : ١٠٣ .

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٢)، والحاكم (٢١٣٠)، وقال: «صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٨) أخرجه الترمذي (٣٦٦١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجة في المقدمة (٩٤)، وأحمد (٢/ ٢٥٣)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني .

٢٠ - القناعة الزائفة

بل اجعل الدنيا في يديك لا في قلبك

لله در ابن الجوزي - رحمه الله - في وقفاته العقلية الشرعية معًا ضد المبتدعة الذين لبسوا مسوح الزهد ظلمًا وزورًا ، وراحوا باسم الإسلام ينكسون أعلام الإسلام.

فهو يفضحهم ويكشف باطلهم فيقول عنهم: « وإنما نبغ أقوام طلبوا طريق الراحة ، فادعوا أنهم متوكلة وقالوا : نحن لا نمسك شيئًا ، ولا نتزود لسفر ، ورزق الأبدان يأتي ، وهذا على مضادة الشرع ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن إضاعة المال ، وموسى عليه السلام لما سافر في طلب الخضر تزود ، ونبينا ﷺ لما هاجر تزود ، وأبلغ من هذا قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾ (١) ، ثم يدَّعي هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا ، فلا يفهمون ما الذي ينبغي أن يبغض ، ويرون زيادة الطلب للمال حرصًا وشرهًا .

وفي الجملة: إنما اخترعوا بآرائهم طريقًا فيها شيء من الرهبانية إذا صدقوا ، وشيء من البهرجة ، إذ نصبوا شباك الصيد بالتزهد ، فسموا ما يصل إليهم من الأرزاق فتوحًا ، قال ابن قتيبة في غريب الحديث عند شرح قوله ﷺ : «**واليد العليا**» ، قال : «هي المعطية» ، قال : فالعجب عندي من قوم يقولون : هي الآخذة ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا استطابوا السؤال ، فهم يحتجون للدناءة ، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم ، وفي الحديث : « **ضاق البلد بمواشي إبراهيم ولوط عليهما السلام فافترقا**»(٢) .

وكان شعيب عليه السلام كثير المال، ثم قد ند طمعه في زيادة الأجر من موسى عليه السلام فقال : ﴿ **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ** ﴾(٣) .

وكان ابن عقيل يقول: «من قال : إني لا أحب الدنيا فهو كذاب» .

فإن يعقوب عليه السلام لما طلب منه ابنه بنيامين قال : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾(٤) . قالوا : ﴿ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ** ﴾ (٥) . فقال : خذوه (٦) .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .
(٢) ذكره ابن الجوزي في صيد الخاطر ، ص ٤٩ ، ولم يعزه لأحد .
(٣) القصص : ٢٧ .
(٤) يوسف : ٦٤ .
(٥) يوسف : ٦٥ .
(٦) انظر : صيد الخاطر وانظر : تلبيس إبليس لابن الجوزي .

وقال بعض السلف: « من ادعىٰ بغض الدنيا فهو عندي كذاب إلىٰ أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون»، وقد نَفَّرَ جماعةٌ من المتصوفة خلقًا من الخلق عن الكسب، وأوحشوا بينهم وبينه، وهو دأب الأنبياء والصالحين، وإنما طلبوا طريق الراحة وجلسوا علىٰ الفتوح، فإذا شبعوا رقصوا، فإذا انهضم الطعام أكلوا(١) .

فإذا لاحت لهم حيلة علىٰ غني أوجبوا عليه دعوة، إما بسبب شكر أو بسبب استغفار، وأطم الطامات ادعاؤهم أن هذا قرابة، وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادعىٰ أَنّ الرقص قربة إلىٰ الله تعالىٰ كفر، فلو أنهم قالوا: مباح كان أقرب حالاً، وهذا لأن القرب لا تعرف إلا بالشرع، وليس في الشرع أمر بالرقص ولا ندب إليه.

ولقد بلغني عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع في وجوه المردان وينظرون إليهم، فإذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل فقالوا: نعتبر بخلق الله!

هيهات! لقد تملك الشيطان تلك الأزمَّة(٢) فقادها إلىٰ ما أراد، والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع، ولا ينظر من أين المطعم، وما زال صالحو السلف يفتشون علىٰ المطعم، حتىٰ أن **إبراهيم بن أدهم** يسهر هو وأصحابه ويقولون: مع من نعمل غداً؟ وكان **سري السقطي** يعرف بطيب النداء، وله في الورع مقامات. .

فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون أتباع أولئك السادة، ويأكلون من مال فلان، وهم يعرفون أصول تلك الأموال، ويقولون: رزقنا.

فوا عجباه إذا كان الآكل لا يبالي من أين، ولا لديه امتناع من شهوة ولا تقلل، ولايخلو الرباط من الطبخ، ولا ينقطع ليلة، وأصله من مال قد عرف من أين هو والحمام دائر، والمغني يدق بدف فيه جلاجل ورفيقه بالشبابة، وسُعدىٰ وليلىٰ في الإنشاد، والمردان في الشمع، ثم يذم الدنيا بعد هذا ، فقولوا: من ينتهي بالناس إلا هؤلاء؟

ولكن من مرت عليه زرجنتهم فإنه أخس منهم(٣) .

---

(١) سلك ابن القيم مسلك ابن الجوزي في الرد علىٰ هؤلاء، انظر: كتابه: «إغاثة اللهفان».

(٢) الأزمة: مفردها زمام.

(٣) انظر: صيد الخاطر ٢٢٩ ـ ٢٣٠ طبعة دار اليقين، تحقيق: دكتور: عبدالرحمن البر.

ثانياً :

التجديد في الفكر الإسلامي عند ابن حـزم الأندلسي

ابن حزم الأندلسي

مولده:

وُلِدَ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في قرطبة، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤هـ الموافق ٧ من نوفمبر سنة ٩٩٤م.

وطبقًا لما يرويه ابن حزم نفسه في مواضع مختلفة من كتابه «طوق الحمامة» صريحًا أحيانًا ومواربًا أحيانًا أخرىٰ، تعرف أنه أمضىٰ طفولة رخية وضعيفة وكسولة، طفولة ابن وزير يشب في أبهاء القصر، وتحت رعاية الخدم، وبين مناغاة النساء، من القيان والجواري والإماء، علىٰ أيديهن نشأ، ومعهن تربىٰ، ولم يعرف غيرهن من الرجال حتىٰ بلغ سن الشباب.

طفولته وشبابه وعصره:

أقصىٰ ما عرف من العالم في صباه شوارع مدينته الصغيرة «منية المغيرة»، حي كبار موظفي البلاط، الملاصق لقصر «الزاهرة»، وهو قصر «المنصور بن أبي عامر»، هذا الرجل العظيم الذي سقط شهيداً في ساحة القتال أثناء عودته من حملة قام بها علىٰ قشتالة، وهي الحملة الخمسون من حملاته العسكرية، ودفن حيث استشهد في مدينة «سالم»، ومعه درعه التي كان يحتفظ بها لتدفن معه، وليلقىٰ بها ربه.

وتولىٰ الحجابة بعده ابنه «عبدالملك المظفر»، وكان ابن حزم في الثامنة من عمره يشق طريقه إلىٰ الحياة في خطا محسوبة، وتعكس مواقفه نضجًا مبكراً، حيث قرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب، ولقي كبار الأساتذة في قرطبة الذين كانوا يترددون علىٰ قصر الحاجب، حيث كان يقيم ابن حزم، مختلطًا بأبنائه وجواريه، مما أتاح له أن يتعرف علىٰ أساتذة يمثلون كل الأفكار، من أشد الناس ورعًا وزهداً إلىٰ أكثرهم جرأةً وتحرراً.

وفي الثانية عشرة من عمره كتب أول أبيات من الشعر استجابة لطلب الأميرة «ضنا العامرية»، ابنة المظفر، التي اقترحت عليه أفكارها؛ لتصنع لها الحنا، وتجعل منها صوتًا يغني.

ولم يتجه ابن حزم لدراسة الفقه إلا بعد أن بلغ السادسة والعشرين من عمره ـ على ما يقول هو ـ عندما أخطأ في صلاة الجنازة على شخصية هامة.

وفي سنة ٣٩٩هـ الموافق سنة ١٠٠٨م توفي الحاجب عبدالملك المظفر، وتولى الحجابة من بعده أخوه عبدالرحمن الملقب بـ« شنجول»، ولم يلبث في الحجابة سوى بضعة أشهر ، ثم اغتيل في مارس سنة ١٠٠٩م، وعزل الخليفة الأموي «هشام الثاني» عن الخلافة، وبويع بها «محمد المهدي»، وأعفى «أحمد بن سعيد» ـ والد ابن حزم ـ من الحجابة التي كان قد تولاها بعد «شنجول»، وترك «منية المغيرة» حي كبار موظفي البلاط.

وفي ١٠ من ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ الموافق ٢٣ من يوليو سنة ١٠١٠م اغتيل «محمد المهدي»، وبويع لـ «هشام الثاني» بعد أن قيل للناس: إنه مات ودفن.

ومع هذه الفتن الطاغية اجتاح الطاعون قرطبة، وفقد فيها ابن حزم أخاه أبا بكر سنة ٤٠١هـ، وبعد عام كامل توفي والده أحمد في ٢٣من يوليو سنة ١٠١٢م ، الموافق سنة ٤٠٢هـ، وكان عليٌّ بن حزم ـ صاحب ترجمتنا ـ قد بلغ من عمره ١٨ سنة.

وفي نهاية شوال سنة ٤٠٣هـ استسلمت قرطبة للبربر، ودخلها الخليفة المستعين بالله سليمان، وظل بها شهرين، ومعه نهبت المدينة في قسوة، ومن ضمن ما نُهِبَ فيها بيت ابن حزم في قرية بلاط مغيث، فهاجر ابن حزم إلى مدينة «المرية» ١من محرم سنة ٤٠٤هـ، الموافق ١٣ يوليو سنة ١٠١٣م.

وفي المحرم من سنة ٤٠٧هـ سقطت المرية في يد العلويين بقيادة علي بن حمود الإدريسي، وصار موقف ابن حزم في غاية الحرج؛ لأن ولاءه لبني أمية وليس للعلويين، فاتهم بالتآمر واعتقل ثم نفي إلى مقاطعة مالقة أو مرسية، حيث انضم إلى الجيش الزاحف على قرطبة بقيادة «عبدالرحمن بن عبدالملك» الملقب بالمرتضى، وهو من أحفاد الخليفة «عبدالرحمن الناصر»، وانتصر الجيش الأموي الذي يضم

ابن حزم، واغتيل علي بن حمود، لكن خيانة الوزيرين العلويين خيران الصقلبي ومنذر» اللذين أشارا على «المرتضى» بأن يبدأ بالقضاء على دولة بني زيرس بصنهاجة قبل أن يقتحم قرطبة كانت سبباً في نهايتها، فقد هجم الجيش البربري الصنهاجي على جيش «المرتضى»، ومزقه وقتل المرتضى ووقع ابن حزم أسيراً، وكان ذلك عام ٤٠٩هـ، ثم أفلت من الأسر ورجع إلى مدينة «شاطبة»، حيث كتب كتابه «طوق الحمامة» وقد بلغ من العمر ٢٨ سنة.

مراحل عمره :

يرى المؤرخ والأديب الأسباني الشهير «أسين بلاثيوس» أن حياة ابن حزم تنقسم إلى مرحلتين رئيسيتين: «واحدة حتى الثلاثين من عمره، والأخرى منهما حتى موته»، وأنه في المرحلة الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة، وفي الثانية ترك الأدب والسياسة وتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد.

خصائصه النفسية :

من أهم خصائص ابن حزم النفسية أنه كان عنيداً ، صلب العزيمة، عنيف المواجهة، معتداً بنفسه، يتمرد على التقاليد القائمة، ويثور على الجمود الديني، ويهاجم المذاهب المختلفة فقهية أو كلامية، مسلمين وغير مسلمين، مهاجمة عنيفة متصلة كلما أتيحت له الفرصة.

ولهذا فقد تعرّض للسجن مرات عديدة، وطرد من بلده مراراً، وأحرقت كتبه كلها أمام عينيه بأمر من أمير أشبيلية من بني عباد، فلم يثنه ذلك عن آرائه وعقيدته، وواجه حرق كتبه وتمزيقها بقوله:

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيثُ استقلت ركائبي

وينزلُ إن أنزل ويُدْفَنُ في قبري

تعصبه للأمويين في عهده :

وقد ظل ابن حزم حتىٰ آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية في الأندلس، ويبشر بمذهبه الظاهري وسط المتاعب والصعاب، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم علىٰ الاقتصاد والسياسة.

وفاته :

وانتهىٰ المطاف بابن حزم وحيداً في رفقة أولاده، وبين نفر قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء، وكان عليه أن ينسحب إلىٰ ديارهم الأولىٰ في قرية «منت لشم» من وديان «ولبة»، حيث مكث يؤلف كتبه، ويحرر رسائله، ولو أنها علىٰ حد تعبير ابن حيان الأندلسي: «لا تتجاوز عتبة داره»، وأوضح هذه الكتب كتابه: «الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، وهو سلسلة من الاعترافات ـ كما يقول الدكتور الطاهر مكي ـ سجلها وله من العمر ٦٩ عامًا شمسيًا، أو ٧٢ عامًا قمريًا.

وتوفي ـ يرحمه الله ـ في ٢٨ من شعبان سنة ٤٥٦هـ الموافق ١٥ من يوليو سنة ١٠٦٣م[١].

(١) انظر: مقدمة كتاب «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» تحقيق وتقديم: الدكتور الطاهر أحمد مكي، الطبعة الأولىٰ ١٩٨١م، دار المعارف.

١ ـ النظرية الخُلقية في الفكر الإسلامي

يحاول الكثيرون من المستغربين أن يردوا الفكر الإسلامي الخلقي إلى الفلسفة اليونانية وفلسفات غيرها! ويلحون على ذلك في كل مقام ومكان، وكأنما كتب علينا معشر المسلمين أن نكون تبعًا ومفعولين غير فاعلين.

فسبحان الله.. !! ما أعظم الخطب.. !!! وما أفدح الجرم.. !!

حتىٰ في الأخلاق التي هي غاية من غايات الشرع أجمع، كما ثبت في حديث النبي ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١).

وقال سبحانه يصف النبي محمداً ﷺ بخصيصة عظمىٰ قوامها: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(٢).

والحاصل أن النظرية الأخلاقية هي نظرية إسلامية أصيلة فذة متكاملة لم تتأثر قط بأفلاطون أو أرسطو أو نيوفماخوس أو غيرهم من أساطين الفكر اليوناني..

الأخلاق في الفكر الإسلامي تنتمي أصلاً ورأسًا ومبدأً إلىٰ كتاب الله الخالد، وسنة رسوله محمد ﷺ.

”uI sM tCKE

(الأخلاق الإسلامية أخلاق ربانية شاملة تامة عامة خالدة مطلقة مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ولم تستمد من غيرها، ومع هذا فلا مانع أن تتلاقىٰ وتتفق وتعضد القيم الخلقية من الشرائع السماوية والوضعية كافة، ومن الفلسفات الأخرىٰ كافة اتفاقًا لا استمداداً، وتوكيداً لا اتباعًا، وإشادة لا استلهامًا).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظة: «صالح» بدل: «مكارم» وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح» ورواه البيهقي في الكبري (١٠/ ١٩١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٢) القلم: ٤.

وهذه دراسة موجزة للنظرية الخلقية في الفكر الإسلامي من خلال مفكر أخلاقي فذ، ألا وهو الإمام ابن حزم الأندلسي، ويكفيك أنه الإمام الفقيه المتكلم الواعظ النظار الأصولي اللغوي الشاعر النساب الوزير ابن حزم الأندلسي - رحمه الله.

نتناول فيها أصول النظرية الخلقية لدىٰ هذا الإمام الفذ، ونلتمس بعضًا من فكره القديم الجديد، والذي كساه منهجه ثوب الجدة، كأنما هو مفكر قائم بيننا، أو كأنما هو أحد رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث.

وما ذلك إلا لسبقه الفكري وصحة منهجه، حيث خلدت كثير من آرائه، وقال بها ومال إليها كثير من الغربيين المحدثين فضلاً عن الإسلاميين.

٢ـ نظرية ابن حزم في أصول الفضائل

عَدَّ ابن حزم أصول الفضائل أربعة على كثرتها، ولم يلتفت في عده إلى أحد من المصنفين، وإن اتفق معهم في المحصلة، وإنما استقرأ فضائل الإسلام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعبَّر عنها في لغة شعرية رقيقة، حيث يقول في كتابه مداواة النفوس(١):

يقول في الأخلاق:

إنَّمَا العقلُ أساسُ ... فوقه الأخلاقُ سورُ

فَلْتُحَلِّ العقلَ بالعلـ ... ـم وإلا فهو بُورُ

جاهلُ الأشياءِ أعمى ... لا يَرى حيثُ يدورُ

وتمامُ العلمِ بالعد ... لِ وإلا فَهْوَ زُورُ

وتمامُ العدل بالجُو ... دِ وإلا فهو جُورُ

ومَلاكُ الجودِ بالنج ... دةِ والجبنُ غُرورُ

عف إن كنتَ غيوراً ... ما زنى قطُّ غَيورُ

وكمالُ الكُّل بالتقـ ... ـوى وقولُ الحقِّ نُورُ

ذي أصول الفضلِ عنها ... حدثت بعد النُّذُورُ

وأصول الفضائل عند ابن حزم أربعة: العدل، والفهم، والنجدة، والجود، ومنها تتركب جميع الفضائل، فالأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود، والنزاهة والصبر يتركب كل واحد منهما من النجدة والجود.

والحلم نوع مفرد من أنواع النجدة، والقناعة مركبة من الجود والعدل، والصدق فضيلة مركبة من العدل والنجدة، والمداواة فضيلة مركبة من الحلم والصبر.

---

(١) انظر: رسالته مداواة النفوس ص٤٢، وانظر: د. صلاح بسيوني رسلان: الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص٢٣٢، ٢٣٣.

٣ ـ حد الفضيلة عند ابن حزم

والفضيلة عند ابن حزم وسيطة (وسط) بين الإفراط والتفريط، وكلا الطرفين مذموم، والفضيلة بينهما محمودة، باستثناء إفراط العقل في التقدير والاحتياط، فهذا ليس بإفراط ؛ لأن الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع.

حدود الفضيلة عنده:

مع تحديد ابن حزم للفضائل فإنه دعا إلىٰ فضائل كثيرة تفريعًا علىٰ الفضائل الرئيسة التي بنىٰ عليها.

ومن الفضائل التي يدعو إلى التمسك بها، لما لها من أثر فعال في صلاح الإنسان وسعادته وصلاح المجتمع كذلك وسعادته : فضيلة الصدق، وفضيلة النزاهة، والقناعة، والحلم، والصبر، والجود، والشجاعة، والعفة، والعدل، والوفاء، والوقار.

والشجاعة عنده، بذل النفس بالشهادة عن الدين، أوالحريم، أو عن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم في المال والعرض.

وحد العفة، أن تغض بصرك، وجميع جوارحك عن الأجسام التي لاتحل لك، وما عدا هذا فهو عهر.

وحد العدل، أن تعطي نفسك الواجب وتأخذه(١) .

« **وحد الكرم** : أن تعطي من نفسك الحق طائعًا، وتتجافىٰ عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضلٌ أيضًا.

وكل جود كرم وفضل، وليس كل كرم وفضل جوداً، فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جوداً، والفضل فرض زدتَ عليه نافلة» (٢) .

(١) انظر : د. صلاح رسلان، ٢٣٦ .

(٢) الأخلاق والسير، لابن حزم، ص ١٢٩ .

٤ ـ أصول الرذائل

عدَّد ابن حزم أصول الرذائل بناءً على نظريته في أصول الفضائل، وعنها تنتج كل رذيلة، وقد جاء تحديده لها كالآتي (كما جاء في كتابه مداواة النفوس) :

وأصول الرذائل أربعة هي:

الجور، والجهل، والجبن، والشح.

وعنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد لأصول الفضائل :

فالجور ضد العدل، والجهل ضد الفهم، **والجبن** ضد النجدة، **والشح** ضد الجود. .

فالشر متولد من الطمع، والطمع من الحسد، **والحسد** من الرغبة، **والرغبة** من الجور والشح والجهل.

ويتولد من الحرص أيضًا رذائل عظيمة كثيرة منها الذل والسرقة والغصب والزنىٰ والقتل والعشق والهم والفقر.

ويفرق ابن حزم بين الحرص والطمع ؛ لأن الحرص هو إظهار ما استكن في النفس من الطمع، والكذب متولد من الجور والجبن والجهل؛ لأن الجبن يولد مهانة النفس، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة(١) .

كما يفرق بين الجور العارض في موقف طارئ وبين من طُبِعَ علىٰ الجور فيقول: «وأما من طُبِعَ علىٰ الجور واستسهاله، وعلىٰ الظلم واستخفافه، فلييئس من أن يصلح نفسه، أو يُقَوِّم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا في خُلُقٍ محمود»(٢) .

(١) انظر: د. صلاح رسلان، ص ٢٣٤، ٢٣٥ .

(٢) الأخلاق والسير، لابن حزم، ص ١٤٠ .

٥ ـ ابن حزم يعبر في نظرياته عن الفكر الإسلامي لا الفكر اليوناني

من عجيب الأمر أن يصر الدكتور زكريا إبراهيم على وصف ابن حزم بالمفكر العربي دون الإسلامي، على أننا لا نمانع ذلك بداية، ولكن ابن حزم في موقعه وظرفه وسياقه الحضاري إنما يعبر مبدأ ومنتهى عن الحضارة الإسلامية، التي انصهرت فيها كل الجنسيات والقوميات في سائر الأمصار والأقطار.

على أنه ينبغي الإشارة إلى أن ابن حزم في أصوله البعيدة برأي كل المترجمين له فارسي، وليس عربيًّا، بشهادة الدكتور زكريا إبراهيم نفسه(١) .

ومن الأعجب أن يصر الدكتور زكريا إبراهيم على قولته في كل إبداعات ابن حزم، حيث يشير إلى أفلاطون ونظرياته عقبها تلميحًا على أن ابن حزم نقلها عنه أو تأثر بها، رغم أن ابن حزم يسندها إلى كتاب الله، وإلى حديث رسول الله ﷺ، وإلى تجاربه الشخصية، وملاحظاته العلمية، وإلى فضيلة منهجه المتناسق المنضبط الذي أفضى إلى نتائج علمية كثيرة لا تزال إلى الآن علامات بارزة على تقدمه.

وكذلك طالما يطالعنا بقوله: « وابن حزم هنا يتلاقى مع ستندال» كما في ص٢٤١، وقد ذكرها أكثر من مرة، فمن يلتقي مع من؟!(٢)

وكم بين هؤلاء الغربيين المحدثين وبين ابن حزم من الزمان؟!

إن هذا والله لشيء عجيب!.

---

(١) انظر: مثلاً ص٢٩، ٣٠ الفصل الثاني ـ سيرة ابن حزم.

(٢) انظر: د. زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسي، ص٣ من المقدمة.

٦ ـ ابن حـزم عالم النفس المسلم.. بشهادة علمـاء الشـرق والغـرب

تالله إنها لمنقبة ومحمدة للفكر الإسلامي الشامل أن يشمل جميع جوانب الحياة أجمع ابتناءً على قاعدة أن « من تأمل كتاب الله وتبصره وتدبره ووعاه وتأمله استخرج من أفانينه علومًا وعلومًا»، قال تعالىٰ : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾(٢) .

وفي ميدان العلوم الإنسانية لا ريب أن كتاب الله مصدرنا وملهمنا فيما يتعلق بقيم الإنسان، وتنظيم حياته الروحية مع خطوط عراض لسيرورة الحركة الاجتماعية في المبدء وهو التوحيد، وفي المنتهىٰ وهو العودة إلىٰ الله .

وعلم النفس قد استقل الآن إلى علم (مفرد) تتنازعه مناهج للدراسة «مناهج وضعية» تعزله عن الدين والوحي والقيم، وعلوم معيارية يأخذ الغيب منها حظًا في المنهجية مع اختلاف وتباين ذلك ما بين عقلانية وما بين معيارية راشدة، تعمل معطيات الوحي والحس معًا، ولقد تعرض لهذا غير ما كاتب(٣) .

ولنعـد إلى علم النفس ومـوقع ابن حـزم منه، آخـذين برؤية الدكتـور زكـريا إبراهيم لابن حزم وعدد من علماء النفس حيث يقول:

« قد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم في عداد علماء النفس، ولكنه لو قرأ بعين الاعتبار رسائل ابن حزم في طوق الحمامة، لما تردد في إدراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة في علم النفس .

---

(١) الأنعام : ٣٩ . (٢) الإسراء : ٨٩ .

(٣) انظر : سلسلة « المعهد العالمي للفكر الإسلامي» واهتمامه بإسلامية المعرفة وبمناهج البحث في كتاب : «المنهجية الإسلامية في العلوم الإنسانية والإسلامية» تحرير د . نصر محمد عارف، ط . أمريكا ، ص ١٩٩ .

ولئن كان ابن حزم قد تناول موضوع الحب من وجهة نظر الأديب، والشاعر، والمؤرخ، أكثر مما تناوله من وجهة نظر الفيلسوف، والمحلل، والباحث النفساني، إلا أن من المؤكد مع ذلك أننا نلتقي في تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة، والآراء الفلسفية العميقة[1] .

(١) ابن حزم ، للدكتور زكريا إبراهيم، ص٢٣٢ .

٧ـ نظريات ابن حزم في علم النفس بين الفقه وعلم النفس

لعل أبرز نظرياته في مجال علم النفس هي نظريته الخطيرة في الحب، على أن القارئ قد يعجل كما عجلت أولاً ويتساءل:

«حب » ! .

أي حب؟!

ما دخل الفقيه في الحب؟!

ظناً منه بأن الحب عاطفة ملوثة ، أو هي وقف على الشعراء والأدباء وذوي المغنى دون غيرهم . . !! .

ويرد ابن حزم عن هذا بشدة، كما يقول الدكتور زكريا إبراهيم:«والظاهر أن الكثيرين من معاصري ابن حزم قد عابوا عليه ـ وهو الإمام الفقيه المتكلم ـ التعرض لدراسة موضوع كالحب ، فلم يجد ابن حزم بداً من الاعتذار عن ذلك في مقدمة رسالته ، ولسان حاله يقول : إنه حتى لو كان الحديث عن الحب أدخل في باب الباطل منه في باب الحق ، فقد قال أبو الدرداء : « أجموا النفوس بشيء من الباطل ، ليكون عوناً لها على الحق» ، كما ورد في بعض الأثر : «**أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد**»(١) .

وإذا كان أول الحب هزلاً، فإن آخره جد، وابن حزم يسجل في صدر كتابه جلال الحب وقداسته، فيقول:

« . . دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عزوجل» .

---

(١) ابن حزم، ص٢٣٣ .

وواضح من هذا النص أن ابن حزم كان يخشىٰ أن يقع في ظن البعض أن الحديث عن الحب هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة، فهو أحرص ما يكون علىٰ إبراز قدسية تلك العاطفة، وخصوصًا قد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرون![1].

ولكن ابن حزم حريص في الوقت نفسه علىٰ تنبيهنا إلىٰ أن الحب خبرة معاشة، فلا يدرك حقيقته إلا من كابده وعاناه، وبالتالي فإن ابن حزم يستند في حديثه عن الحب إلىٰ تجربته الخاصة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٤.

٨ـ ابن حـزم .. وإشـادات العلمانيين

قصدت الاعتماد على عدة مراجع مصاحبة لرسالة ابن حزم «في مداواة النفوس»، وكتابه: «طوق الحمامة»، واخترت منها كتاب ابن حزم الأندلسي للدكتور زكريا إبراهيم، وهو إن لم يكن محسوبًا على الإسلاميين، بل قد يكون معاديًا لهم في كثير من الأحيان ، أو قل بالأحرى سالكًا غير نهجهم في التأليف والتصنيف والفكر والسلوك فبينهما بون.

إضافة إلىٰ توجهاته التنويرية بمعناها الاصطلاحي عندهم، والتي تعني أحيانًا كثيرة أن الإسلام دين لاهوت كالمسيحية، وليس شاملاً وعامًا (للدين والدنيا) وهذه أطروحة وافقه فيها جابر العابدي، وأركون، وثلة القوميين والعلمانيين من العلماء في علومهم، وليس في علوم الدين .

عمومًا اخترت هذا الكتاب للدكتور زكريا إبراهيم؛ لأنها شهادة منه علىٰ عظمة الفكر الإسلامي في ماضيه التليد، وكيف أن أهله ساسوا الدنيا بالدين وأعملوا دينهم وأبدعوا وبرعوا وقادوا وسادوا وملؤوا الدنيا عدلاً وتحضراً وتقدمًا .

وهذا ما يقوله لسان حال الدكتور زكريا في كتابه، فلماذا إذن نعدل عن هذا الصواب إلىٰ غيره، ونقزم هذه الحقائق ونقلمها إذا أتينا إلىٰ واقعنا المعاصر .

أليس الإسلام هو الإسلام؟!

أليس هناك مفكرون يقومون بما قام به ابن حزم في عصرنا كماهو في عصره؟

أليس جديراً بنا أن نعود إلى هذا السياق الحضاري الذي أخرج لنا أمثال ابن حزم ممن سادوا الدنيا في إسبانيا اليوم (الأندلس) وجنوب فرنسا وإيطاليا؟

لماذا إذن جماعات المفكرين من اليسار واليمين والوسط والجوار والخارج والداخل ممن لم يقنعوا بأطروحات الإسلام؟ لماذا هم يتعنتون ويتمعضون ويحملون قراطيسهم، وعلىٰ أطراف ألسنتهم، وعلىٰ فوهات أقلامهم الكثير والكثير ضد الحركة الإسلامية؟! هكذا تساؤلات وتساؤلات كثيرة نتطارحها ويطرحها غيرنا .

٩ ـ نظرية ابن حزم في طلب العلم

(سيكولوجية طلب العلم)

عجيب أمر طلب العلم وأمر طلاب العلم، من جهة أن طلب العلم عزيز الجناب كثيف الحجاب ليس لأي أحد أن يختط طريقه وينهج سبيله إلا بعزيمة.

ثم إن طلاب العلم ليختلفون في غاية الطلب للعلم وفي طريقة الطلب، وفي منهج الطلب وفي نتيجة الطلب.

وهذا ابن حزم يوضح لنا بجلاء من خلال كتاباته ومناظراته جوانب جد متناسقة في هذا الأمر، فلنستمع إليه، حيث يروي في هذا الصدد أنه تناظر مع الفقيه الباجي الإمام المالكي المشهور:

فقال له الباجي: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معان عليه، فتسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق»، فقال له ابن حزم: «هذا الكلام عليك، لا لك؛ لأنك إنما طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حال ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة».

ولم يجانب ابن حزم الصواب، فإن الغني أضيع لطلب العلم من الفقير، وطيب العيش كثيراً ما يسول للنفس التمادي في طلب اللذة بدلاً من التفاني في طلب العلم، وسنرىٰ كيف كانت حياة ابن حزم الأندلسي نموذجًا لحياة العالم النزيه الذي يطلب العلم للعلم والعمل، لا للمال والجاه، أو للشهرة والمجد.

أليس ابن حزم هو الذي يقول:

«إن لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته؟»[1].

« ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله، والشارب

---

(١) انظر: ابن حزم الأندلسي ص ٥، ٦.

بشربه، والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره، وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سميناها كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر»(١).

نظرية ابن حزم في طلب العلم:

ويبين ابن حزم فضل العلم وشرفه وعلو مكانته فيقول:

«لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سببًا إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة، ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سببًا إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة».

ويزيد ابن حزم في بيان العلم وفضله فيقول: «لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره..»(٢).

ولا يقف ابن حزم عند بيان فائدة العلم وشرف طالبه، وإنما يقدم لطالب العلم خلاصة تجربته، وصادق نصحه، فيبين له ما ينبغي أن يشغل به نفسه، لافتًا نظره إلى تقديم الأعلى على الأدنى، فيقول: «من شغل نفسه بأدنى العلوم، وترك أعلاها وهو قادر عليها، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكغارس الشَّعْراء(٣) حيث يذكو النخل والزيتون».

---

(١) الأخلاق والسير، ص ٨٧.
(٢) الأخلاق والسير، ص ١٠٢.
(٣) **الشَّعْراء**: شجرة ليس لها ورق، ولها هدب تحرص الإبل عليها، وليس لها ثمر.

ثم يتجاوز ذكر فائدة العلم وشرف طلبه، وبيان مراتب الطلب والانشغال بأعلاها، إلىٰ أمر يقع فيه العلماء وطلاب العلم في زماننا هذا، وربما نتج عن ذلك أمور تستوجب الندم، وذلك عندما يتصدىٰ العالم إلىٰ نشر العلم عند من ليس من أهله، فيقول: «نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراقٌ وحمًّى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء».

وهو في ذلك يلتقي مع فلاسفة اليونان الذين يجعلون العلم وقفًا علىٰ طبقة مختارة متميزة.

ولكني لا أظن أن ابن حزم يقصد بمن ليس من أهله طبقة الفقراء، وإنما يقصد المنصرفين إلىٰ لا ما يليق بالعلم وأهله من أهل البدع، والمجاهرين بالمعاصي، والمشتهرين بالخلاعة والمجون.

ولا ينبغي للقارئ أن يذهب بعيداً فيظن أن ابن حزم يدعو إلىٰ قصر العلم علىٰ طائفة من الناس دون أخرىٰ، فها هو ينعت الباخل بعلمه باللؤم فيقول: «والباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنىٰ على النفقة، ولا يفارقه مع البذل».

وحتىٰ لا يترك القارئ في حيرة فيما ينبغي أن يطلب من العلم وما يترك، يدله علىٰ أعلىٰ العلوم وأشرفها فيقول: «أجلُّ العلوم ما قَرَّبَكَ من خالِقِكَ تعالىٰ، وما أعانك علىٰ الوصول إلىٰ رضاه».

وقبل أن ينتقل من رؤيته في طلب العلم لا ينسىٰ ابن حزم أن يضع أيدينا علىٰ مسألة من أدق المسائل وأهمها، وهي الانشغال بالعلوم الغامضة الفهم: كالرياضيات والمنطق وعلوم الجدل والكيمياء... وغيرها فيقول: «العلوم الغامضة كالدواء القوي، يصلح الأجساد القوية، ويهلك الأجساد الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة وتصفيه من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف»(١).

---

(١) الأخلاق والسير، ص ١٠٤.

ويصل ابن حزم إلى الغاية في بيان فضائل العلم فيقول : « منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة ، وهو أن يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة ، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة ، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله ، والثناء الرديء فينفر منه ، فعلىٰ هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصةفي كل فضيلة ، وللجهل حصة في كل رذيلة »(١) .

(١) الأخلاق والسير ، ص ١١٢ .

١٠ ـ نظريات ابن حزم الأخلاقية نجم في سماء الفكر الإنساني أجمع

يكاد ابن حزم أن يكون مفكر الإنسانية ـ وليست الحضارة الإسلامية وحدها ـ في عصره، وما هذا بعجيب ؛ لأن الإسلام هو رسالة الله إلى بني البشر جميعًا ، وقد تمثلت إمامته من خلال كتاباته الكثيرة في الأديان المقارنة، وفي الأصول وفي الأخلاق، وفي طبيعة المشاعر الإنسانية.

وهذه نبذة عن قيمة نظرياته الأخلاقية من خلال رسالته الموجزة في مداواة النفوس من خلال عرض الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم وهو أدرى بمعنى العالمية الفكرية في مجال القيم (الإكسيولوجيا)، فيقول:

وفضلاً عن ذلك فقد ترك لنا ابن حزم كتابًا في الأخلاق سماه باسم «**الأخلاق والسير في مداواة النفوس**» ، وصفه **المستشرق الأسباني بلاسيوس** فقال : «إنه أشبه بسجل يوميات ، دوّن فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته» .

وهذه الملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يقصد بها التعليم والتربية ، ولم يراع في تنسيقها منطق ، ونحن إذ نقرؤه ، نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم» .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن هذا الكتاب الصغير الذي صاغ فيه ابن حزم مواعظه على طريقة سنيكا وغيره من علماء الأخلاق ، يشبه إلى حد غير قليل بعض كتب الأخلاق الحديثة مثل : «الطباع» **للإبروييـر**، و«مقالات في الأخلاق والسياسة» **لفرنسيس بيكون** .

ولئن كنا نختلف مع القائلين بأن رسالة ابن حزم قد صدرت عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف ، إلا أننا لا نرى مانعًا من القول إنها قطعة أدبية نفسانية ، تصف لنا أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية ، وتكشف لنا عن فضائلهم ورذائلهم بطريقة مجردة تمامًا عن كل ميل أو هوى .

وعلىٰ الرغم من أننا نجد ابن حزم - في هذا الكتاب - يصارحنا برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه، ويقررها في تواضع وإخلاص يذكرنا باعترافات أوغسطين، إلا أننا نجده أيضًا يقدم لنا صورة حقيقية حية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في مجتمعهم فيقول: « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلىٰ منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل، وفي دعاء إلىٰ حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالىٰ، وفي نصر مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصىٰ».

وقد وصف لنا المستشرق الأسباني بالنثيا قيمة ابن حزم الفكرية والأدبية، فكتب يقول: « ففي قرطبة ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة في كل فن، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين في تاريخ الأندلس، وإن المتأمل في مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة، ليرىٰ بوضوح أن ذلك الإنتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغًا عظيمًا.

فذلك التحليل النفسي الدقيق الذي يتجلىٰ في كتابه: «**طوق الحمامة**»، وهذه الملاحظات الشخصية النافذة علىٰ الرجال وأخلاقهم التي يبديها في كتاب «**الخصال**»؛ ذلك كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية[1].

وإليك بعض الومضات التي تنبئ عن عالم رباني، وفقيه موسوعي، وفيلسوف حكيم، يقول ابن حزم: « تطلبتُ غرضًا يستوي الناس كلهم في استحسانه، وفي طلبه فلم أجده إلا واحدًا؛ وهو طرد الهم، فلما تدبرته علمتُ أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم لايتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم، فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره، فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها علىٰ ألا يعتمدوا بسعيهم شيئًا سواه»[2].

---

(١) انظر: ابن حزم الأندلسي، ص ٨، ٩.

(٢) الأخلاق والسير، ص ٨٧، ٨٨.

ثم يقيم ابن حزم دليله على صحة ما ذهب إليه، فيستعرض كل ما يشغل الناس في حياتهم من أغراض؛ ليصل إلى أن كل غرض منها لا يحظى بإجماع الناس عليه إلا الهم، فإن جميع الخلق مُجْمِعُونَ عليه، فيقول: « وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه. . »(١) .

لكنه وهو العالم الفيلسوف لا يكتفي بالتشخيص، وإنما يقدم العلاج في ثقة واقتدار قائلاً: « وقد بحثتُ عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم، فلم أجدها إلا في التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة»(٢) .

ولا يقف الإمام عند هذه الحقيقة الناصعة، وإنما يشفع ذلك بهذه النصيحة الغالية فيقول: « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل، وفي دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصرة مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»(٣) .

ونرى ألا ينتهي موقفنا من الأخلاق عند ابن حزم قبل أن نتعرف على رأيه في طائفة من الأخلاق التي لها المحل الأعلى في حياة الناس مثل: الصدق، والوفاء، والعفة، والصداقة.

يقول ابن حزم عن نفسه: « وما أحببتُ كذاباً قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيبٍ وإن كان عظيمًا، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشا من أعلمه يكذب، فهو عندي ماحٍ لكل محاسنه، ومعفٍ على جميع خصاله، ومذهب كل ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه، وكل ذامٍ فقد يمكن الاستتار به، والتوبة عنه، حاشا الكذب، فلا سبيل إلى الرجعة عنه، ولا إلى كتمانه حيث كان.

وما رأيتُ قط، ولا أخبرني من رأي، كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه،

(١) المرجع السابق، ص ٨٩ . (٢) المرجع السابق، ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق، ص ٩٣ .

ولابدأتُ بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب، فحينئذٍ أكون أنا القاصد إلى مجانبته، والمتعرض لمتاركته»(١) .

ولا يقف ابن حزم بالكذاب عند هذه الأصاف، وإنما يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر، بل إنه يرى الكفر شعبة من الكذب، لأنه إخبار بغير ما هو عليه، ويورد لذلك أدلة من الكتاب والسنة تدل على فضل الصدق، وبشاعة الكذب .

ويرى أن النميمة فرع من فروع الكذب، ويرى أن الواشي والناقل والنمام شَرُّ جميع الناس فيقول: « وإن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب، والنميمة فرعٌ من فروع الكذب، ونوعٌ من أنواعه، وكل نمام كذاب، وهو أصل كل فاحشة، وجالب كل سوء» .

وكعادة ابن حزم في سعة أفقه ، ورجاحة عقله، لا يقف عند دور الكذب في حياة الأفراد ، وإنما يتعداه في نظرة متقدمة؛ ليدرك دور الكذب وخطره في حياة الأمم والشعوب فيقول : « وما رأيتُ أخزى من كذاب، وما هلكت الأمم، ولا هلكت الممالك، ولاسفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب» .

---

(١) انظر : دراسات عن ابن حزم، د. الطاهر مكي، ص ٢٣٤ .

١١ ـ اتفاق الغربيين ومتابعيهم لنظريات ابن حزم

نتيجة لنجاحات ابن حزم في دراساته وبراعته في استخدام المنهج، فقد أفضت إلى ديمومة صحت في مجالاتها إلى الآن بحيث لا مناص للغربيين إلا متابعتها والبناء عليها وهذا ليس زعمًا، وإنما حقيقة جلية.

ولنسمع إلى الدكتور زكريا إبراهيم وهو يحدثنا عن متابعة الغربيين له مع التساؤل عن إصراره: واتفق ابن حزم مع فلان وإنه لم يقل: وتابع فلان ابن حزم، يقول: وابن حزم هنا يتلاقى مرة أخرى مع **الكاتب الفرنسي الكبير «ستندال»** الذي سيقول من بعد بفكرة «التبلور»، فيروي لنا كيف أن خيال المحب يخلع على المحبوب كل ما يهواه هو من ضروب الكمال، وكيف أن أوهام المحب هي التي تجيء فتضفي على شخصية المحبوب من المزايا ما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة.

و ابن حزم يتفق أيضاً مع « ستندال » في أن عملية التبلور أسرع وأسهل لدى المرأة منها لدى الرجل؛ لأن «حب النساء في هذا أثبت من حب الرجال، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن، وتمكنه منهن».

ولكن الكاتب العربي الكبير يلاحظ أن «المعاينة» قد تجيء بعد ذلك فتؤكد هذا النوع من الحب، وتزيد من قوته، أو تبطله تماماً، وتقضي عليه بالكلية!

وهو يروي لنا - في هذا الصدد - الكثير من الأخبار التي سمع عنها، ويسرد علينا بعضًا مما شاهده بعيني رأسه، لكن لا يلبث أن يصدر على هذا النوع من الحب حكم الفيلسوف العاقل المتبصر، فيقول: « إن من أحب من نظرة واحدة، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة، فهو دليل على قلة الصبر، ومخبر بسرعة الرجوع، وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفاداً».

وكما حدثنا ابن حزم عن الحب الذي ينشأ عن الخيال والوصف، والحب الذي

ينشأ من نظرة واحدة، نجده يحدثنا أيضًا عن الحب الذي يتكون ببطء، تحت عنوان: « باب من لا يحب إلا مع المطاولة».

و ابن حزم هنا يكشف عن عقلية سيكولوجية ممتازة؛ لأنه يربط الحب بالزمان، ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطاتها بموضوع واحد، فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسي دوراً هامًا في تأصيل عاطفة الحب ودوامها، وكيف أن «ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً».

والظاهر أن خبرة ابن حزم الخاصة قد دلته على أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الحب، في حين أن العاطفة البطيئة التي تكون على مر الأيام والليالي لا بد من أن تدوم وتثبت على العكس من الشهوة العابرة أو المغامرة الغرامية الخاطفة[(١)] .

وهو يقول في ذلك بصريح العبارة: « وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه، ولا أجعل حبه إلا ضربًا من الشهوة.

وأما أن يكون في ظني متمكنًا من صميم الفؤاد، نافذاً في حجاب القلب، فما أقدر ذلك، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً، وأخذي معه كل جد وهزل، وكذلك أنا في السلو والتوقي، فما نسيت وداً لي قط»[(٢)] .

(١) ابن حزم، ص٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢ .

١٢ ـ علماء النفس الغربيون يأخذون عن ابن حزم نظرية التثبيت في السلوك

ويبدو لنا هنا أن ابن حزم أميل إلى القول : إن لكل فرد منا أسلوبًا خاصًا في سلوكه، أو نمطًا شخصيًا في أخلاقه، وتصرفاته، فهو لا يملك عنه محيداً، ولا يكاد يقوى على تغييره، حتى أنه ليحب مرة بعد أخرى، فلايكاد حبه في كل مرة يختلف عما مر به فيما سلف من تجارب عاطفية.

و ابن حزم يحدثنا عن هذه الظاهرة في فصل من كتابه سماه باسم : «**باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها**» ، فيكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسي اليوم على تسميته باسم «التثبيت» .

(وهو عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص أو شيء ارتباطًا وثيقًا ؛ بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسي أو البلوغ العاطفي) .

ومما يقوله ابن حزم في هذا الباب قوله : « . . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر ، فما أحب طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضًا من هوىٰ جارية في فمها فوه لطيف ، فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه ، وعني أن أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو (كانت) على صورة الحسن نفسه ، وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره ألبتة»[١] .

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٥ .

١٣ ـ ضبط الحب بالشرع والعفاف عند ابن حزم

ابن حزم يصف في كتابه ظاهرة إنسانية عامة هي الحب، ويحللها بقلم العالم النفساني والمحلل الاجتماعي الواعي وهو في كل ذلك يصف ولا يحكم، ويفسر ولا يقيم.

ثم ها هو ذا يصل إلىٰ غاية العلم في ربطه بالواقع، وضبطه بضوابط الشرع، فيتحدث عن العفاف ويطيل فيه، وقد ذكر العفاف بنظرية علمية حاذقة أكثر من ذكرها بقواعد إنشائية أو خطابية، كما يذكر الدكتور زكريا إبراهيم حيث يقول عن ذلك: ولا يتسع المقام للإفاضة في شرح رأي ابن حزم في العفاف، ولكن حسبنا أن نقول: إنه في رأيه ممكن بشرط أن يحكم الإنسان عقله، (وقائده العدل) في نفسه، والرجال والنساء سواء في المقدرة علىٰ قمع الشهوة، بعكس ما وقع في ظن الكثيرين؛ فقد وُجِدت صالحات من النساء كما وُجِدَ صالحون من الرجال.

والمهم في التعفف هو ضبط الإرادة، وحسن توجيه الانتباه، فقد جعلت النظرة الأولىٰ لك والأخرىٰ عليك!

وابن حزم يذكرنا بأن بنية الإنسان مدخولة ضعيفة، فلابد من تجنب أسباب الخطر، والتحامي بالذات عن مواطن الغواية، إذا أريد ضبط النفس وامتلاك زمام الذات، وكم أدىٰ طول الاختلاط وكثرة التنافس علىٰ النساء إلىٰ سفك دماء، وإزهاق أرواح!

وكم كانت الغيرة سبباً في تعادي المتواصلين، وتباغضهم بعد المحبة!

وابن حزم يؤكد لنا هنا «أن المودة إذا استحالت إلىٰ عداوة، صارت أفظع من الموت، وأنفذ من السهم، وأمرّ من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم..».

ويختم ابن حزم حديثه عن الحب بالإشادة بالتعفف، فيقول: إن الرسول ﷺ قد خص بمدحه رجلاً دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: «**إني أخاف الله**»، وليس عند الله معصية أقبح من الزنى (١) .

ويقول أيضًا الدكتور زكريا إبراهيم في ختام دراسته عن ابن حزم: «والحق أن ابن حزم حين كتب في الحب، فإنه لم ينس أن يتخذ من هذه الدراسة مناسبة للحض على الفضيلة، والدعوة إلى العفة، والمناداة بقبح المعصية.

من هنا فقد أضاف ابن حزم إلى تحليلاته النفسية العميقة نصائح أخلاقية قيمة توج بها رسالته الجميلة في الحب.

وما كان لابن حزم أن يتناسى «**الخير**» عند حديثه عن «**الجمال**»؛ فإن المفكر الأندلسي العظيم كان أعلم الناس بما في الجمال من «**خير**»، وما في الخير من «**جمال**»، وخصوصاً أن الفضيلة ـ عنده ـ قد بقيت كما كانت عند اليونان ضربًا من التوافق أو الانسجام، ولا سبيل إلى تحقيق مثل هذا الانسجام إلا بالعمل على طرد الهم، والقضاء على أسباب الألم.

والناس مجمعون على ضرورة الوصول إلى هذه الغاية، وإن اختلفوا في السبل المؤدية إليها، وأما ابن حزم الرجل المجرب والعالم المتدين، فإنه لا يرى سبيلاً للوصول إلى هذه الغاية إلا بالتوجه إلى الله عز وجل، واثقًا من أنه هيهات للإنسان أن يستبعد الألم، ويطرد الهم، اللهم إلا إذا توجه بكل قلبه وعقله ونفسه إلى المولى سبحانه وتعالى.

وليس بدعًا بعد هذا أن نجد ابن حزم يربط الفضيلة بالتدين، فيقول: « ثق بالمتدين، وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف، وإن أظهر أنه على دينك، من استخف بحرمات الله تعالى، فلا تأمنه على شيء تشفق عليه».

أليس التدين في نظره هو جماع الأخلاق؟

فكيف يثق المرء في رجل مستخف لا وازع له من دين؟

(١) ابن حزم، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

بل كيف يؤتمن شخص مستهتر لا يعصمه عن الرذيلة عاصم؟ . .

ألا رحم الله ابن حزم رحمة واسعة، فقد كان بحق أعرف الناس بقيمة الدين، وأحرصهم علي الربط بين العلم والعمل، ولنستغفر الله - في النهاية - مع ابن حزم «استغفار من يعلم أن كلامه من عمله»![1].

ابن حزم والجمال والحب:

وابن حزم رقيق الإحساس، سريع التأثر، يهوىٰ الشكل الجميل، والصورة الحسنة، ويعي جيداً ما يحدثه الجمال في الأرواح من هزة، وما يثيره في النفوس من رجة، لأن النفس الحسنة تولع بكل شيء حسن.

ويرىٰ في إثارة الجمال سلطانًا لا يُقاوَم، ويستدل علىٰ أثر سلطان الجمال في النفس بموقف المصريات في إحساسهن بجمال يوسف عليه السلام في قول الله تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ** ﴾[2].

ولقد عاش ابن حزم في بيئة عامرة بالصبايا الجميلات، وأحبَّ في سن مبكرة جداً، فقد صبا قلبه ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، ولم يكن ابن حزم ممن يؤمنون بالحب من أول نظرة، وإنما يعد ذلك نوعًا من الشهوة العابرة، وإنما الحب عنده يحتاج إلىٰ زمن ومعاناة وفهم متبادل، ويقول عن نفسه معترفًا: « ما لصق الحب بأحشائي قط إلا مع الزمن الطويل».

وهذه نظرة عصرية، فإن كثيراً من الناس يرون الحديث عن الحب نوعًا من صفات أهل البطالة؛ لا ينبغي أن يوصف به رجل عفيف أو وقور، لكن ابن حزم بهذه النظرة الثاقبة كان سابقًا لعصره، متعقلاً في فهمه، متوازنًا في حكمه علىٰ الأشياء، متحرراً من قيود الأعراف الخاطئة، مهما كان أثرها عظيمًا وخطيراً.

يقول ابن حزم: « بحسب المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحب، فطبع

(١) المرجع السابق، ص٢٦٦، ٢٦٧ .

(٢) يوسف: ٣١ .

لا يؤمر به ولا يُنْهَىٰ عنه، إذ القلوب بيد مقلبها، ولا يلزمه إلا المعرفة والنظر في فرق مابين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة».

وهو هنا يذكرنا حديث رسول الله ﷺ في تعبيره عن ميله لعائشة ـ رضي الله عنها: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ**»(١) ، ويقصد ميل القلب.

ويقدم ابن حزم صورة للسعادة التي تغمر أعطاف المحب في براعة تعكس لنا عقلية مجرب خبير فيقول: « وما في الدنيا حالة تعدل محبين، إذا عدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العذل، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقًا داراً، وعيشًا قاراً، وزمنًا هادياً، وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال، وطالت صحبتهما، واتصلت إلىٰ وقت حصول الحمام الذي لا مرد له، ولابد منه، ولقد وطئتُ بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيتُ هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه»(٢) .

وابن حزم يقدم صورة للحب على قدر ما يراها في نفسه دون مبالغة أو تكلف أو استهجان، فيقول عندما سُئل عن تحقيق القول في أنواع المحبة : «المحبة كلها جنس واحد، ورسمها أنها الرغبة في المحبوب، وكراهة منافرته، والرغبة في المقارضة منه بالمحبة، وإنما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها، فتكون المحبة لله عز وجل فيه، وللاتفاق علىٰ بعض المطالب، وللأب والابن، والقرابة والصديق، وللسلطان، ولذات الفراش، وللمحسن، وللمأمول، وللمعشوق، فهذا كله جنس واحد، اختلفت أنواعه ـ كما وصفتُ لك ـ علىٰ قدر الطمع فيما يُنال من المحبوب، فلذلك اختلفت وجوه المحبة»(٣) .

(١) أبو داود (٢١٣٤)، واللفظ له، والترمذي (١١٤٠)، كلاهما من حديث عائشة ـ رضي الله عنها، وضعفه الشيخ الألباني.
(٢) دراسات عن ابن حزم، ص ٢٤١، مرجع سابق.
(٣) الأخلاق والسير ، ص ١٦٥ .

ويقسم ابن حزم المحبة إلى خمس درجات :

أولها : الاستحسان : وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة ، أو يستحسن أخلاقه ، وهذا يدخل في باب التصادق .

ثم الإعجاب به : وهو رغبة الناظر في المنظور إليه ، وفي قربه .

ثم الألفة : وهي الوحشة إليه إذا غاب .

ثم الكلف : وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع يسمىٰ في باب الغزل بالعشق .

ثم الشغف : وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك .

وربما أدَّىٰ ذلك إلىٰ المرض ، أو إلىٰ التوسوس ، أو إلىٰ الموت ، وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة»(٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

١٤ ـ ابن حزم المفكر .. مثار اهتمام علماء الغرب

اهتم الغربيون بابن حزم لا لشخصه بقدر ما أولوا اهتماماً بعلمه وفكره، وها نحن ذا نعرض مقتطفات لهم عن سيرته وفكره لجلالة قدره وعلو كعبه، وتمثيله في زمانه لحضارة الإسلام والمسلمين الخالدة في النواحي الفكرية بأبعادها كافة.

ابن حزم ابن حضارته الإسلامية :

نعم هذه حقيقة مستقرة لدىٰ كل دارسي ابن حزم، فهو ابن تلك الحضارة الإسلامية رغم اضطرابها السياسي أحيانًا، بيد أن الاضطرابات السياسية العديدة التي حفل بها عصر ابن حزم لم تقترن في الحقيقة بأي انحلال فكري، بل لقد شهدت بلاد الأندلس ـ حتىٰ في عهد الطوائف ـ نهضة أدبية كبرىٰ، نتيجة للتنافس الشديد بين الدويلات الصغيرة في مضمار العلوم والآداب.

وعلى الرغم من الحملات التي استهدفت ـ بين الحين والآخر ـ علوم الأوائل، وفي مقدمتها المنطق والفلسفة، فقد عجز رجال الدين عن صد تيار التراث اليوناني.

وقد أرجع المستشرق الأسباني بالنثيا هذا الازدهار الفكري إلىٰ عوامل كثيرة **أهمها**: أن عصري الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من فروع الدراسات، واختمرت اختماراً طويلاً، **وثانيها**: أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتىٰ أرجاء بلاد الأندلس، كما تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة، **وثالثها**: تلك الحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتىٰ نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية.

وهكذا تطورت الثقافة الإسلامية في عصر الطوائف، فانتشرت العلوم بين أهل بلاد الأندلس، وأقبل المفكرون علىٰ وضع المؤلفات القيمة في كل فن.

وكان في ذلك كتب ابن حزم في تاريخ الأديان، متقدماً في ذلك علىٰ مفكري أوربا بقرون كثيرة، وكتب مروان بن حيان والحميدي في تاريخ الأندلس، وكتب

صاعد الطليطلي في التاريخ العام، وكتب آخرون في تواريخ الدول التي قامت قبيل سقوط خلافة قرطبة الأموية وبعدها . . . إلخ[١] .

وظهر أيضًا في عصر الطوائف شعراء مشهورون لعل أبرزهم: أبو الوليد أحمد ابن زيدون (٣٩٤ ـ ٤٦٣هـ)، والمعتضد بن عباد (٤٠٣ ـ ٤٦٢هـ) حاكم إشبيلية، وابنه المعتمد الذي خلفه على عرش إشبيلية (٤٣٢ ـ ٤٨٩هـ) وقيل عنه : إنه كان من أرفع شعراء الأندلس، إن لم نقل : شعراء العالم الإسلامي قاطبة .

وربما كان ابن حزم نفسه من أهم شعراء الأندلس الذين عاصروا فترتين هامتين من حياة الأندلس، ألا وهما فترة انهيار الخلافة الأموية بقرطبة، وفترة ظهور ممالك الطوائف، وقد أدخله **المستشرق الأسباني بالنثيا** في عداد شعراء المروانيين، بينما ألحقه **غرسيه غومس** بفترة الانتقال من الحكم الأموي إلى حكم الطوائف، وقال عنه : « إنه رمز على أحوال الأندلس في أيامه، فقد كان شابًا أنيقًا ينتسب إلى بيت رفيع من موالي بني أمية، دخل ميدان السياسة وهو بعد في مطلع الشباب، ثم عانى أوصاب النفي، واشترك في المؤامرات والتدبيرات فيما بعد، ثم أصبح آخر الأمر مفكراً قوي اللسان، جواب آفاق، ينازل العلماء والفقهاء، ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة في الفقه والفلسفة والدين، حتى لقد سمى نفسه في أحد كتبه «رجلاً جليًا» بل جدليًا جوالاً، حتى ليصدق عليه قوله :

لـم تستقـر بـه دار ولا وطـنٌ ... وَلاَ تدَفَّـأَ مِنْـهُ قَـطُ مضجعُـهُ

كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ رَهْوِ السَّحَابِ فَلاَ ... تَـزَالُ رِيحٌ إِلى الآفاق تدفعُهُ[٢]

---

(١) انظر : ابن حزم الأندلسي، ص ٢٣، ٢٤ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٥ .

١٥ - نظرية ابن حزم في مُسالمة الناس وعداوتهم

عجيب هذا الشأن.. !! وغريب هذا الحال.. !!

أن تنبني نظرية ابن حزم في الاجتماع على المسالمة والمهادنة فيما دعا إليه من منهج متكامل للمعاشرة، وقد تمثل ذلك في حياته نهجًا ونظرًا، وهو الذي كان يدعو دائمًا إلى مسالمة الناس، والائتناس بهم، فضلاً عن أنه كان صديقًا صدوقًا لعدد غير قليل من علماء عصره، كما تدلنا على ذلك مراسلاته التي تفيض بالمودة والإخاء.

وهذا الكلام على إيجازه يمثل نظرية الإنسانية والإخاء أجمع من رؤية ابن حزم، غير أن الواقع الذي عاشه ابن حزم يناقضها تمامًا بما لا ينسجم مع من قال.

إذ حياته ملؤها الجدال والمناظرة والاضطهاد من الناس حتى أحرقوا كتبه وهموا به ليؤذوه مرات ومرات عديدة.

وقد اختلف المؤرخون في تفسير أسباب الخصومة التي استهدفت ابن حزم، فقال بعضهم: إنها كانت ترجع إلى جرأته على المناداة بالمذهب الظاهري في بيئة أجمع معظم أهلها على الأخذ بالمذهب المالكي.

وقال عن نفسه كما في طوق الحمامة(١) :

« إن قومًا من مخالفي شرقوا بي، فأساؤوا العتب في وجهي، وقذفوني بأني أعضد الباطل بحجتي، عجزًا منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله، وحسدًا لي، فقلت، **وخاطبت بقصيدتي بعض إخواني** وكان ذا فهم، منها:

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ... ولو أنهم حيات ضال نضائض
يريعون في عيني عجائب جمة ... وقد يتمنى الليث، والليث رابضُ
ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما ... يرجى محالا في الإمام الروافضُ
ورأيي له في كل ما غاب مسلك ... كما تسلك الجسم العروق النوابضُ

---

(١) انظر: طوق الحمامة، ص ٤٤، ٤٥.

وقد لاقى المآسي في ذلك..

فيروي عنه المترجمون كما يذكر ابن بسام في كتابه الذخيرة ١٤١/١:

وقد اشتد العداء بين ابن حزم وفقهاء عصره، فتألبوا عليه، وكفروه، وضللوه، وحذروا منه العوام والسلاطين، طاردوه بدعايتهم من بلد إلىٰ بلد، وشنعوا عليه في كل قاصية ودانية.

وهذا ما وصفه لنا ابن حيان المؤرخ حينما كتب يقول:

« . . فتمالؤوا (الفقهاء) علىٰ بغضه، وردوا قوله، وأجمعوا علىٰ تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلىٰ أن انتهوا به إلىٰ منقطع أثره بتربة بلده في قريته الصغيرة بالبادية، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلىٰ ما أرادوا به ببث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم . . . إلخ»(١) .

وفي الصداقة يقول ابن حزم: « حدُّ الصداقة : أن يكون المرء يسوؤه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقًا، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وكان ابن حزم حفياً بالصداقة، يرىٰ فيها السند عند الشدة، ورواء الروح لحظة البهجة».

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد، في فترة قلقه سياسيًا واجتماعيًا، تهبط بالمرء في لحظات من العرش إلىٰ اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلىٰ قمة المجد، فمنهم من تغير مع الدنيا، فأقبل عليه حين أقبلتْ، وأعرضَ عنه حين أدبرت، مثل : «محمد بن الوليد» الذي أقبل عليه حين كان أبوه وزيراً، فلما تغيرت الدنيا واقتحم البربر قرطبة خرج ابن حزم منها خائفًا يترقب، وتذكر صديقه «محمد بن الوليد» الذي كان صاحب وجاهة وحالة حسنة، فلم يوفه حقه، وأساء معاملته، وكلَّفه ابن حزم حاجة فلم يقم بها، وانشغل عنها بما ليس في مثله بشغل .

(١) انظر عن ذلك: ابن حزم الأندلسي، ص ٤٠ ، ٤١ .

ومن أصدقائه من كانت الكراهية شديدة بينه وبينه، ثم استحالت صداقة حميمة وودًّا صادقًا، كالذي جرىٰ بينه وبين «أبي عامر» حفيد المنصور بن أبي عامر.

يقول ابن حزم: «وكان أصل ذلك تنقيلاً يحمل إليه عني، وإليَّ عنه، ويؤكده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان، ووجاهة الدنيا، ثم وفق الله للاجتماع به فصار لي أودّ الناس، وصرتُ له كذلك، إلىٰ أن حال الموت بيننا»(١).

ويقدم ابن حزم نصائحه في الصداقة، وهي تنم عن شخصية رائد حكيم، وعالم خبير، فيقول في عتاب الصديق: «استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك، العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإما تصفو وإما تطير».

ويقول في أدب الصداقة وحق الصديق على الصديق: «من طوىٰ من إخوانك سره الذي يعنيك دونك، أخون لك ممن أفشىٰ سرَّك، لأن من أفشىٰ سرك فإنما خانك فقط، ومن طوىٰ سره منهم دونك فقد خانك واستخونك».

ويعمد ابن حزم إلى الخفي من المشاعر والأحاسيس مما لا يبوح به كثير من الناس، فيصل إليه وكأنه مبضع جراح ماهر فيقول: «لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل علىٰ الخيبة والخزي، ولا تزهد فيمن يرغب فيك، فإنه بابٌ من أبواب الظلم، وترك مقارضة الإحسان بالإحسان، وهذا قبيح».

ويصل ابن حزم بنصائحه إلى قمة عالية من مداواة النفوس والإحاطة بأسرارها فيقول ناصحًا من يريد السلامة من أصحاب الدهاء والخداع، ويحتفظ بفضائل الأبرار، وسجايا الفضلاء: «أن تكتم سر كل من وثق بك، وألا تفشي إلىٰ أحد من إخوانك، ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه، وإن كان أخص الناس بك، وأن تفي لجميع من ائتمنك، ولا تأمن أحداً علىٰ شيء من أمرك تشفق عليه، إلا لضرورة لابد منها فَارْتَدْ حينئذٍ، واجتهد وعلىٰ الله تعالىٰ الكفاية.

(١) دراسات عن ابن حزم، ص ٢٣٦، مرجع سابق.

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه، وإن لم يعتمدك بالرغبة، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضته [1] على ذلك من غير ربك عز وجل».

ولا يقف عند مجرد التيئيس من توقع رد الإحسان أو الاعتراف به، بل يصل إلى ما هو أعلى من ذلك فيقول : « ولا تبن إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر بك، وساعٍ عليك، فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم».

ثم يُجْمِلُ ذلك كله في كلمات تفيض حكمة، وتمتلئ وعيًا بطبيعة الحياة فيقول : « لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف».

ولعل القارئ يلمس من وراء هذه النصائح الغالية نفسًا صافية، وقلبًا رهيفًا، وفؤادًا نقيًا لا يعرف الخداع ولا يتوقعه، ونحن نوافق القارئ في شعوره بصفاء النفس، ورهافة القلب، لكنا لا نوافقه على اعتبار ابن حزم ممن ينخدعون أو ممن يؤتون من باب الإفراط في حسن الظن، أو خلابة القول، أو تصنع الوفاء، فإن رجلاً مثل ابن حزم عرك الحياة وعركته، وتقلب بين العطاء والمنع، وبين الإقبال والإدبار، ليس بالرجل الذي يُخْدَعُ.

ولهذا غلب على حياة ابن حزم نوع من سوء الظن فيمن حوله، وتوقع الشر والغدر حتى من أقرب الناس إليه، وبرغم هذا الشعور فإنه لم يتحول في حياته إلى سلوك مرضي، وإنما ظل يمثل نوعًا من الوقاية أمام تقلبات الزمان، **فيقول**: « لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته، فكل أحد صديقه يومئذٍ».

ويقول : «استعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه في التحفظ والتأهب، واستعمل حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ فتربح راحة النفس».

---

(١) أي : مبادلة الإحسان، أو رد الجميل .

ويرد على من عاب عليه سوء ظنه فيقول : «وأما سوء الظن فيعده قومٌ عيبًا على الإطلاق، وليس كذلك إلا إذا أدَّىٰ بصاحبه إلىٰ ما لا يحل في الديانة، أو إلىٰ ما يقبح في المعاملة، وإلا فهو حزم، والحزم فضيلة».

الوفاء عند ابن حزم :

يقول ابن حزم : « لقد منحني الله ـ عز وجل ـ من الوفاء لكل من يمت إلىٰ بلقية واحدة، ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظًا».

ويعترف بأن فراق الأحبة كان يقع من نفسه موقعًا أليمًا فيقول : « ما انتفعتُ بعيشٍ، ولا فارقني الإطراق، منذ ذقتُ طعم فراق الأحبة، وإنه لشجي يعتادني، وولوع هم ما ينفك يطرقني، ولقد نغص تذكري ما مضىٰ كل عيش أستأنفه».

وربما وقع منه ما لا يتوقع من مثله، فقد كان إذا نُعِيَ إليه من يحب، وواجع الفراق الأبدي، وكان نازحًا وحيداً، فر بنفسه إلىٰ المقابر يمشي بينها، ويتعزىٰ بأبيات من الشعر يترنم بها(١) .

---

(١) دراسات عن ابن حزم، ص ٢٤٣ .

١٦ـ تحليل وقائع هذه النظرة اجتماعيًا ونفسيًا

حاصل القول في ذلك هو الواقع من المعادلة الصعبة بين (رضا الله سبحانه.. وواقع الناس)، وهذا ما أفصح عنه ابن حزم بقوله : « إن لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق، فأغضب الناس ونافرهم، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق» .

وهكذا نرى أن ابن حزم قد آثر إعلان الحرب على الناس، حبًا منه لله، وحرصًا منه على تجنب غضب الله، فكان من ذلك أن ثار عليه الخاصة قبل العامة، ونفر منه الأصدقاء قبل الأعداء! ولم يستطع ابن حزم أن يفهم السر في كل تلك الحملات التي شنها عليه معاصروه، فراح يقول :

قَالُوا : تحفظ فإن الناس قد كثرت ... أقوالهم وأقاويلُ العِدَى مِحنُ
فَقُلْتُ : هَلْ عَيْبُهُمْ لِي غَيْرَ أَنِّي لاَ ... أَقُولُ بِالرَّأْي إِذْ فِي رَأْيِهِمْ فِتَنُ
وَأَنَّنِي مُولَعٌ بِالنَّصِّ لَسْتُ إلى ... سَواهُ أَنحُوُ وَلاَ فِي نَصْرِهِ أَهِنُ
لاَ أَنْثَنِي نَحْوَ آرَاء يُقَالُ بِهَا ... فِي الدِّين، بَلْ حَسْبِي القُرآنُ وَالسُّنَنُ

❖ ❖ ❖

إنِّي لأعجب مِنْ شَأْنِي وَشَأْنِهُمُ ... واحَسرتَا إنَّنِي بِالنَّاس مُمْتَحِنُ
مَا أَن قَصَدتُ لأمرٍ قطُّ أَطْلُبُهُ ... إلاَّ وَطَارَتْ بِهِ الأَظْعَانُ وَالسُّفُنُ
أَمَا لَهُمْ شُغْلٌ عَنِّي فَيَشْغَلُهُمْ ... أَوْ كُلُّهُمْ بِيَ مَشْغُولٌ وَمُرْتَهَنُ
كَأَنَّ ذِكْرَى تَسْبِيحٌ بِهِ أُمِرُوا ... فَلَيْسَ يَغْفَلُ عَنِي مِنْهُمْ لُسُنُ
إِنْ غِبْتُ عَنْ لحظِهِمْ مَاجُوا بِغَيْظِهِمُ ... حَتَّى إذَا مَا رَأَونِي طَالِعاً سَكَنُوا

دَعُوا الفُضُولَ وَهُبُّوا لِلْبَيَانِ لِكَيْ يَدْرِي مُقِيمٌ عَلَى الحُسْنَى وَمُفْتَتَنُ

وَحَسْبِيَ اللهُ فِي بَدْءٍ وَفِي عَقَبٍ بذكرِهِ تُدْفَعُ الغَمَّاءُ وَالإِحَنُ

ويظهر أن العداء الذي ابتلى به ابن حزم قد اتسع حتى شمل بعض أفراد أسرته؛ فقد ناصبه العداء ابن عمه أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم، وكان حريًا به أن يقف إلىٰ جانبه في محنته، ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه، بدلاً من أن يعينه على الزمان! ويتضح لنا من المراسلات التي دارت بينهما أن أبا المغيرة كان يحسد ابن عمه ويغار منه، فليس بدعاً أن نجده يعرض به ويشمت فيه.

ولعل هذا ما حدا بابن حزم إلىٰ القول مع عيسىٰ عليه السلام: «لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده»!

وقديمًا قال الشاعر طرفة بن العبد:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

ولم يجد ابن حزم بُداً من أن ينأىٰ بنفسه عن الناس (ما خلا صغار المريدين من طلاب العلم) فارتحل إلىٰ قريته الصغيرة بالبادية (وهي قرية منت ليشم التي يقالُ: إنها كانت ملكاً لأهله) ولفظ هناك أنفاسه الأخيرة في الثامن والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٥٦هـ بعد حياة مليئة بالكفاح والنضال.

هكذا توفي ابن حزم عن اثنين وسبعين عامًا، مخلفًا وراءه ثروة ضخمة من الإنتاج العلمي بلغت - فيما روى لنا ابنه الفضل أبو رافع - حوالي أربع مئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة! (١).

---

(١) انظر: ابن حزم ص ٤٧، ٤٨.

١٧ ـ نظرية الحب عند ابن حزم

هذا والله سبق عظيم لابن حزم فاق به من تقدمه، وبزَّ به على لاحقه، ولجهل منا وبسوء نية بعض المستغربين أحيانًا فإننا لانفهم هذه النظرية، ولا نضعها في مواضعها..

فبعض العلماء عن علم ـ واحسرتاه ـ يهمل هذه النظرية أو يسندها إلىٰ أصل يوناني بعيد، وهو أفلاطون، علىٰ أن ابن حزم ردها مباشرة إلىٰ صريح كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ إلىٰ الوحي، ولكن من ذا تخاطب . . ؟[1].

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًا ولَكِـنْ لاَ حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِي

ما هي نظرية الحب عند ابن حزمٍ ؟

هي نظرية في ما هية الحب قوامها ما قاله ابن حزم في (طوق الحمامة) :

«وقد اختلف الناس في ما هيته، وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع».

هذه هي خلاصة ما قاله ابن حزم فيها، غير أن هذه النتيجة قد بناها علىٰ وسائل منهجية علمية صارمة لا زالت مثالاً يحتذىٰ به في روح البحث العلمي الحديث كالآتي :

١ ـ الاعتماد على الوصف والتحليل والتجربة :

حيث إنه لا يستند في أحكامه إلىٰ آراء نظرية خالصة، أو نظريات فلسفية معروفة، بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين، دون التعرض لذكر أسماء أصحابها، اللهم إلا من لم يكن هناك ضرر من تسميته.

---

(١) انظر عن الإشادة بهذه النظرية : كتباً فلسفية مثل : موسوعة الفلاسفة، للدكتور عبدالمنعم الحفني جـ١ مادة (ح : ر . م)، ط مكتبة مدبولي .

وهو يصرف النظر عن أخبار الأعراب والمتقدمين؛ لاعتقاده بأن أساليبهم في الحياة والحب قد كانت مختلفة تمامًا عن أساليب أهل عصره، ولاقتناعه في الوقت نفسه بأنه لا بد له من أن يأتي بجديد، بدلاً من أن يقتصر على ترديد أحاديث السابقين.

٢ ـ الاستناد إلى النص القرآني في التفسير:

وتلك هي إبداعية ابن حزم في نظريته، إذ يردها آخرون إلى أفلاطون وفلاسفة اليونان، وهي نظرية إسلامية أصيلة لها أساس من القرآن، وإن كانت تعبر عن حقيقة قائمة على الملاحظة والتجربة، وإن اختلفت مفاهيم التجربة هنا عنها في العلوم الطبيعية، وقد ردها ابن حزم إلى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾(١).

٣ ـ التمهيد بذكر المقدمات العقلية:

حيث أبدع ابن حزم في استقراء أنواع الحب وضبطها: فهناك محبة القرابة، ومحبة الألفة، والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة المتحابين في الله عز وجل (إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان)، وأخيراً محبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس، ولكن من المؤكد أنه إذا كانت المحبة لسبب من الأسباب، فإنها لا بد من أن تفنى بفناء هذا السبب؛ «فَمَنَ وَدَّكَ لأمر وَلَّى مع انقضائه».

وأما محبة العشق فإنها محبة خالصة، تنفذ إلى أعماق النفس فتتمكن منها، ومن هنا فإنه لا فناء لهذه المحبة إلا بالموت!

وكما أنك قد ترى شخصين يتباغضان بدون سبب، ويكره أحدهما الآخر دون علة، ويستثقل الواحد منهما الآخر بلا مبرر، فكذلك قد ترى شخصين

---

(١) الأعراف: ١٨٩.

يتحابان دون علة ظاهرة، ويكلف الواحد منهما بالآخر لغير ما سبب، يأنس الواحد منهما بالآخر دون أدنى مسوغ!

ولكن لا غرابة في ذلك؛ فإن الحب يزين للمرء ما كان يأنف منه، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده، حتى أنك لتجد المرء حين يمسه الحب، وكأنما هو قد استحال إلى مخلوق آخر، أو كأن طبيعته قد تغيرت تغيراً كلياً شاملاً. وهكذا أبدع ابن حزم - رحمه الله - في التحليل والتعليل(١).

٤ - توكيد نظريته بالحديث النبوي الشريف دون أقوال الفلاسفة:

ولكن ابن حزم يقرر مع ذلك أن المحبة لا تقوم مطلقًا بين متنافرين أو متضادين؛ لأن الشكل يستدعي دائمًا شكله، والمثل إلى مثله ساكن، فأنت لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية بدرجة تختلف شدة وضعفًا، كلما كثرت عناصر المشاكلة بينهما، وأدت المجانسة، وتأكدت المودة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(٢).

ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه، فقيل له في ذلك، فقال: «ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه».

وابن حزم يضيف إلى ذلك أن النفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال، حسنة تكلف بكل شيء حسن، فهي تنجذب بالضرورة نحو الأشكال المنسجمة والصور المتوافقة، وهي حين تميز في المواضيع الجميلة شيئًا من أشكالها، فإنها سرعان ما تتعلق بها وتنجذب إليها «وإن لم تميز وراءها شيئًا من أشكالها، لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة»(٣).

---

(١) انظر: طوق الحمامة، ص ١٠، ١١.

(٢) البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٢٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤)، وأحمد (٢/٥٣٩).

(٣) انظر: د. صلاح بسيوني رسلان، د. زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسي ص٢٣٤-٢٣٨.

١٨ ـ نظرية الإصلاح الخُلقي عند ابن حزم (البرمجة القيمية)

من رائع صنيع ابن حزم في نظرياته الخلقية ما ذكره من فصول جد طريفة وإبداعات فائقة وآليات تفوق عصرها ومصرها في علاج الأدواء الفاسدة، والخصال غير الخلقية من خلال معرفة تجريبية وذهنية تحليلية جد رائعة، سبق بها جميع علماء النفس، واستحق معها الريادة في حلبات الدراسات الخلقية.

ويقوم هذا العلاج على معرفة الإنسان المحققة لنفسه وبحثه عن عيوبها، ثم محاولته التخلص منها، ومن هنا ينصح ابن حزم من ابتلى برذيلة العجب أن يتخلص منها بالبحث عن عيوبه، ولأن من خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط وصار من السخف والخسة وضعف العقل والتمييز، بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأرذال.

فإذا أعجب المرء بفضائله، فسيجد أن له عيوبًا كثيرة، فإذا أعجب المرء بعقله، فكل فكرة سوء تمر بخاطره تدل على نقص عقله، وإذا أعجب المرء بآرائه فليتفكر في سقطاته، فأقل أحوال المرء أن يوازن بين سقوط رأيه وصوابه فيخرج لا له ولا عليه، والأغلب أن يكون خطأ المرء أكثر من صوابه، وإذا أعجب بعمله فليتفكر أنه موهبة من الله مجردة، وأن ما خفي عليه من أنواع العلم وما يجهله منه أكثر، وإذا أعجب المرء بشجاعته فعليه أن ينظر فيمن هو أشجع منه، وإذا أعجب بخيره فليتذكر معاصيه وتقصيره، وإذا أعجب بجاهه في الدنيا فليتفكر في نظرائه ومخالفيه، وإن أعجب المرء بماله فليتذكر أن هناك من الساقطين الحمقى من هو أغنى منه، وإن أعجب المرء بمدح إخوانه، فليتذكر ذم أعدائه، وإن أعجب المرء بنسبه فهذه أسوأ صفة حيث لا فائدة فيها في الدنيا ولا الآخرة، وأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه، والمعجب بذلك مثل المعجب بمال جاره وجاه غيره، وهو كالغبي يزهى بذكاء أبيه.

إن المهم عند ابن حزم هو سيرة الإنسان في هذه الحياة، فإن أعجب بقوة جسمه فليتذكر أن البغل والحمار والثور أقوى منه وأحمل للأثقال، وإن أعجب المرء

بخفة حركته فليعلم أن الكلب والأرنب يفوقانه في هذا، ومن العجب أن يعجب الإنسان الناطق بخصلة وميزة يفوقه فيها غير الناطق.

ويرى ابن حزم أنه من الأهمية بمكان أن يلتزم الإنسان العدل ويؤثر الاعتدال في كل شيء، فالعادل بعيد عن العجب، وذلك لعلمه بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق، وإيثاره للاعتدال الذي هو وسط بين طرفين مذمومين، والعدل حسن يلجأ إليه كل خائف، ولا ترى إنساناً يذم العدل، فحتى الظالم إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل وأنكر الظلم وذمه.

هذه الأخلاق الإسلامية التي يدعو إليها ابن حزم ، يعتبرها «**البارون كارادوفو**» فلسفة خلقية أصيلة لأنها: « تعد الاعتدال وشيئًا من العدل الطبيعي فضائل جوهرية مولدة من حيث المبدأ، لسعادة حاضرة، وتمنح هذه السعادة مثل غاية لجهد أدبي، ولا تدع، إلا بظاهرة من الأسف، فكر حياة قادمة تتدخل نظراً إلىٰ تقويم ثواب ناقص تحبو هذه الحياة الدنيا به الصالحين».

ويقول «**كارادوفو**» بعد ذلك: «لقد أدرك أن العدل مؤلَّف من عدد من الفضائل والمقاصد الذهنية المتوسطة التي تصور أنها من طبيعة واحدة تقريباً، ومن عيار واحد تقريباً، وذلك في جميع الأزمان وجميع الأقطار».

والمعجب بنفسه، عند ابن حزم، يزهو برأيه، ويخرجه العجب إلىٰ أن يثني علىٰ نفسه، ويحمدها ويزكيها، وهو يتعالىٰ بنفسه، وينظر إلىٰ الآخرين بعين الاستجهال، وغالبًا ما يصر علىٰ خطئه، ويرىٰ ابن حزم أن سبب العجب الجهل المحض، وأن العلاج إنما يكون بالمعرفة المضادة لذلك الجهل.

ويرى ابن حزم أن صلاح النفس وعلاج عيوبها أجدى وأنفع من مداواة الجسد وعلاج أمراضه؛ لأن مداواة الجسد، تابعة لمداواة النفس فيقول: «وما عم إصلاح النفس والجسد معاً أفضل وأولىٰ بالاهتمام به مما خص إصلاح الجسد فقط ـ هذا برهان عقلي ضروري حسي».

ثم يخبرنا عن فلسفة الإصلاح وبرنامجه مع الخارجين على حدود الأخلاق

فيقول : «وينصح ابن حزم بوعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل بلين وبشر وتبسم، وليس بالجفاء والاكفهرار، تأسياً بالنبي ﷺ، والذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾(١) .

فإن لم يتقبل الموعوظ، فلينتقل الواعظ إلىٰ الوعظ بالتحشيم وفي الخلاء، فإن لم يقبل ففي وجود من يستحي منه الموعوظ؛ لأن هذا هو مراد الله تعالىٰ في أمره بالقول اللين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا يواجه بالموعظة، ولكن كان يقول : «**ما بال أقوام يفعلون كذا؟**»، وكان منهجه الأمر بالتيسير والنهي عن التنفير.

ويرىٰ ابن حزم أَنَّ مما يشجع في الوعظ وينفر من الرذائل الثناء بحضرة المسيء علىٰ من فعل خلاف فعله، فهذا داعٍ إلىٰ عمل الخير، وما أعلم لحب المدح فضلاً إلا هذا وحده، وهو يقتدي به من يسمع المديح(٢) .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) انظر ابن حزم الأندلسي، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

١٩ ـ نظرية المثل عند ابن حزم

لا تنطلق نظرية المثل عند ابن حزم من عالم خيالي أجوف كالذي رسمه أفلاطون في عالم الأشباح، يزعم أنه الكمال كل الكمال، وما سواه فهو صورة عنه شأنه ناقص.

وفي الفكر الإسلامي ينطلق المثال من عالم الواقع عالم الحقيقة من شخصية الرسول ﷺ فهو سيد الخلق وحبيب الحق، وهو مثلنا وقدوتنا، وهو النموذج المشخص الأمثل لما يجب أن نقتدي به.

وهنا يفوق الفكر الإسلامي كل فكر سواه، ويتميز عن كل دين وضعي أو إسلامي غيره.

ويجمل ابن حزم هذه المنقبة العظمى في الفكر الإسلامي في جمل أشبه بسلاسل الذهب بقوله: «من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاقتداء به»(١).

ويقول أيضاً: «وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو القدوة في كل خير، والذي أثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها، وأبعده عن كل نقص، يعود المريض مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا خف، ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة، ويلبس الشعر إذا حضره، وقد يلبس الوشي من الحبرات إذا حضره، ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه ولا يترك ما يحتاج إليه، ويستغني بما وجد عما لا يجد، ومرة يمشي حافيًا راجلاً، ومرة يمشي بالخف، ويركب البغلة الرائعة الشهباء، ومرة يركب الفرس عرياء، ومرة يركب الناقة، ومرة

(١) رسائل ابن حزم، ص١٢٣.

حماراً ويردف عليه بعض أصحابه، ومرة يأكل التمر دون خبز، والخبز يابسًا، ومرة يأكل العناق المشوية، والبطيخ بالرطب والحلواء، يأخذ القوت، ويبذل الفضل ويترك ما لا يحتاج إليه ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه، ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل».

وقد جسد الرسول ﷺ في شخصه كل معاني البساطة والزهد والتواضع..

فقد كانت حياته مثال البساطة في الحياة.

٢٠ ـ ارتباط العلم بالعمل

هذه من فرائد الفكر الإسلامي أجمع دون باقي مقومات الفكر البشري، حيث ارتقى الإسلام بالعلم إلى أعلى درجاته، وجعل العلماء في الرتبة الثانية بعد الله سبحانه وملائكته، فقال ـ سبحانه: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاإِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)، (٢) .

كما ذكر القرآن الكريم كلمة العلم بمعنى المعرفة العامة فذكرها ومشتقاتها على اختلاف مدلولها نحو (٤٠٠) مرة، وذكر كلمة القراءة ومشتقاتها (٥٠) مرة.

وهذا ما حمل الغربيين على الإشادة والتنويه بمبدأ العلم في الإسلام فيقول **جولد تسيهر**: « إن تقديس النبي ﷺ للمعرفة والعلم ليميزه من جميع المعلمين ويجعله وثيق القرابة إلى عالم التفكير الحديث»(٣) .

نظرية ابن حزم في ارتباط العلم بالعمل :

لا غرابة إذن أن يعتبر ابن حزم طلب العلم فرض كفاية، فيحث على طلب العلوم؛ لأنها تزيد العقل جودة، وتصفيه من كل آفة، ولابد أن تكون كل العلوم لوجه الله تعالى: «فأفضل العلوم ما أدى إلى الخلاص في دار الخلود، ووصل إلى الفوز في دار البقاء، فأجل العلوم عنده ما قرب الإنسان من خالقه، وأعانه على الوصول إلى رضاه، وأفضلها كلية هو: «علم الشريعة، التي لا معنى لخروجنا إلى هذا العالم غيرها، ولا خلاص لنا ولا سلامة عند خروجنا من الدنيا إلا بها».

---

(١) آل عمران: ١٨ .

(٢) انظر: الشيخ: محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص١٣٣، طبعة الإدارة العامة للثقافة الإسلامية: القاهرة ١٩٥٩م.

(٣) نقلاً عن د. رسلان «الأخلاق والسياسة عن ابن حزم».

وبالنسبة للحياة الدنيا، فابن حزم يرى أن الهدف من العلم هو نفع طلاب العلم والمعرفة، وتوضيحًا لذلك يقول: « رقمت كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب ـ أي رسالته في مداواة النفوس ـ لينفع الله تعالىٰ به من شاء من عباده ممن يصل إليه ما أتعبت فيه نفسي، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وهديته إليه هدياً، فيكون ذلك أفضل من كنوز المال وعقر الأملاك، إذا تدبره ويسره الله تعالىٰ لاستعماله، وأنا راج لي ذلك من الله تعالىٰ أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة علل نفوسهم» .

وتتعلق العلوم، عند ابن حزم، بعضاً بالبعض الآخر، وبالتالي فإن من يكتفي بتعلم علم واحد يصبح أضحوكة، فالواجب علىٰ الإنسان أن يأخذ من كل علم بنصيب .

وتنقسم العلوم في جملتها، عند ابن حزم ، إلىٰ سبعة أقسام وهي : علم شريعة كل أمة، وعلم أخبارها، وعلم لغتها، والأمم تتميز في هذه العلوم الثلاثة .

أما عن توظيف هذه المعارف وهو غاية العلم بها، فيقول ابن حزم مشيداً بفضل من جمع بين العلم والعمل : « فرض علىٰ الناس تعلم الخير، والعمل به، فمن جمع الأمرين استوفىٰ الفضلين معاً، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به، فخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به، وهذا الأخير فيه أمثل حالاً، وأقل ذمًا من آخر ينهي عن تعلم الخير ويصد عنه، ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ولا أمر بالخير إلا من استوعبه، لما نهىٰ أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي عليه الصلاة والسلام» .

ويرى ابن حزم أن من العار على المرء أن ينهي عن شيء ثم يفعله، ويستشهد بقول أبي الأسود الدؤلي تأييداً لصحة ما يذهب إليه:

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَأْتِي مَثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيـمُ

وأفضل الأعمال عند ابن حزم ثلاثة أعمال متدرجة:

« وكلها تضع الفرد موضع المسؤولية الاجتماعية :

- **أولها وأهمها:** عمل عالم يعلم الناس دينهم .
- **وثانيها:** الحاكم العادل الذي يشارك رعيته في كل عمل خير عملوه في ظل عدله ومن سلطانه .
- **وثالثها:** مجاهد في سبيل الله .

وهكذا تتدرج مراتب العمل عند ابن حزم من أوسع حدوده الاجتماعية إلىٰ أصغر المراتب الفردية حتىٰ يتم من ذلك تسع مراتب متفاضلة متدرجة لا تحرم الإنسان أملاً، وتليها جميعًا مرتبة واحدة مؤكدة الهلاك، وهي حال الكافر فحسب» .

من فرائد ابن حزم :

وكما رأينا لابن الجوزي فرائد من الحكم تنهض شاهدة علىٰ فلسفة المشرق وسموه وجلاله، فإننا نسوق إلىٰ القارئ الكريم جملة من فرائد ابن حزم، تأتي شاهدة علىٰ ما وصل إليه المغرب الإسلامي من كمال وجلال في جمال مداواة النفوس وسبر أعماقها .

يقول ابن حزم : «تطلبتُ غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحداً، وهو طرد الهم، وليس له إلا طريق واحد، وهو العمل لله تعالىٰ، فما عدا هذا فضلال وسخف» .

ويأخذ الإنسان معه إلى أعلى درجات السمو النفسي والأخلاقي فيقول : «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلىٰ منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل، وفي دعاء إلىٰ حق، وفي حماية حريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالىٰ، وفي نصرة مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصىٰ» .

وفي جُمَلٍ قصيرة خاطفة يختصر أعلى ما يطمح إليه العاقل السوي فيقول:

« لا مروءة لمن لا دين له» .

« العاقل لا يرىٰ لنفسه ثمنًا إلا الجنة» .

وفي براعة عالية، وإحاطة داعية بمداخل النفوس يقدم وصفة للراحة النفسية، فيقول: «من قدَّر أن يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون» .

ثم يفصل هذا الإجمال ، ويرفع هذا الغموض، فيقول : « من حقق النظر ، وراض نفسه علىٰ السكون إلىٰ الحقائق ، وإن آلمتها في أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه ، لأن مدحهم إياه إن كان بحق ، وبلغه مدحهم له ، أسرىٰ ذلك فيه العُجب ، فأفسد بذلك فضائله ، وإن كان بباطل فبلغه ، فسرَّه ، فقد صار سروراً بالكذب ، وهذا نقصٌ شديدٌ ، وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان سبباً إلىٰ تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل وبلغه فصبر عليه اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غانماً ؛ لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل ، فيحظىٰ بها في دار الجزاء ، أحوج ما يكون إلىٰ النجاة بأعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها ، وهذا حظٌ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون» .

وفي حكمة بالغة يضع معيار الفضائل والرذائل فيقول : « ليس بين الفضائل والرذائل ، ولا بين الطاعات والمعاصي ، إلا نفار النفس وأنسها فقط ، فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ، ونفرت من الرذائل والمعاصي ، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ، ونفرت من الفضائل والطاعات ، وليس ها هنا إلا صنع الله تعالىٰ وحفظه» .

وعلى طريقته في الوصول إلى اللب، والغوص على الحقيقة يقول: « إذا حققت الدنيا لم تجدها إلا الآن ، الذي هو فصل الزمانين فقط ، وأما ما مضىٰ وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن ، فمن أضل ممن يبيع خالداً بمدة هي أقل من كر الطرف» .

وهو هنا يلتقي مع الشاعر الحكيم الذي يقول :

ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعةُ التي أنت فيها

ويقدم ابن حزم وصفة مريحة تسعد الإنسان في حياته، وتنفعه بعد مماته فيقول: « إذا نام المرء خرج عن الدنيا ، ونسي كل سرور ، وكل حزن ، فلو رتب نفسه في يقظته علىٰ ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة» .

ومن فرائد ابن حزم التي يقدمها لراحة العقل والنفس هذه النصيحة الغالية

فيقول : « من أساء إلىٰ أهله وجيرانه فهو أسقطهم ، ومن كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم ، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم ، وخيرهم ، وأفضلهم »(١) .

■ **ويقول في النصيحة أيضاً :**

«استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بسيئاتك» .

« العتاب للصديق ، كالسبك للسبيكة ، فإما تصفو وإما تطير » .

«من طوىٰ من إخوانك سره الذي يعنيك دونك ، أخون لك ممن أفشىٰ سرك ، لأن من أفشىٰ سرك فإنما خانك فقط ، ومن طوىٰ سره دونك منهم فقد خانك واستخونك» .

« لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل علىٰ الخيبة والخزي» .

« لا تزهد فيمن يرغب فيك ، فإنه بابٌ من أبواب الظلم ، وترك مقارضة الإحسان . . وهذا قبيح» .

« من امتحن بأن يخالط الناس فلا يلق بوهمه كله إلىٰ من صحب ، ولا يبن منه إلا علىٰ أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه ، وسوء معاملتهم . . . » .

ويصل في النصيحة درجة لم تُعْرَفْ لغيره من الأطباء النفسيين، وتنبئ عن شخصية إمام عرك الحياة وعركته فيقول : « إياك والامتداح ، فإن كل من يسمعك لا يصدقك ، وإن كنتَ صادقاً ، بل يجعل ما سمع منك من ذلك في أول معايبك ، وإياك ومدح أحد في وجهه ، فإنه فعل أهل الملق ، وضعفة النفوس .

وإياك وذم أحد لا بحضرته ولا في مغيبه ، فلك في إصلاح نفسك شَغْل ، وإياك والتفاقر(٢) ، فإنك لا تحصل من ذلك إلا علىٰ تكذيبك ، أو احتقار من يسمعك ، ولا نفعة لك في ذلك أصلاً ، إلا كفر نعمة ربك تعالىٰ ، أو شكواه إلىٰ من لا يرحمك .

---

(١) انظر : الأخلاق والسير ، تحقيق : د . الطاهر مكي ، ط١ ، ١٩٨١م ، ص ٩٤ ـ ١٠١ .

(٢) ادِّعَاء الفقر .

وإياك ووصف نفسك باليسار، فإنك لا تزيد على إطماع السامع فيما عندك، ولا تزد على شكر الله تعالى، وذكر فقرك إليه، وغناك عمن دونه، فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك».

« ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئًا أبدًا»[١] .

«لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك، فإن طلبتَ أكثر فأنت ظالم» .

ويصل في مداواة النفوس مقامًا عاليًا عندما يقول : « لا تكسب إلا على شرط الفقر، ولا تَتَولَّ إلا على شرط العزل، وإلا فأنت مضر بنفسك، خبيث السيرة» .

هذا التوجيه الحكيم يؤمن أصحاب المناصب من حالات الاكتئاب والحزن التي تنتابهم عند صرفهم من مناصبهم، عندما يجدون أنفسهم فجأة وقد انفضَّ عنهم من كانوا بالأمس يتمسحون بهم ويتملقونهم .

وفي الصداقة أيضًا يقول : « لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأراذل، ولا تكتمه ما يستضر بجهله، فهذا فعل الأشرار»[٢] .

ولأنه رجلٌ خبر الحياة وعركها فإنه يدرك ما يمكن أن تؤول إليه أمور الاختلاط في الزواج فيقول : « لا تصاهر إلى صديق ولا تابيعه، فما رأينا هذين العملين إلا سببًا للقطيعة» .

(١) من أقوال ابن حزم، ص ٢٣٠ .

(٢) الأخلاق والسير، ص ١٥٨ .

الخـاتمـة

الإصلاح الاجتماعي والتربوي والتجديد الاجتماعي موضوع اضطلع به علماء أفذاذ في مسيرة فكرنا الإسلامي، اخترنا منهم عَلَمَيْنِ اثنين مثالاً علىٰ التجديد والحيوية، هما: العراقي المشرقي: أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، وعالم الغرب: أبو محمد ابن حزم الأندلسي.

وقد سعينا لتحليل الفكر السيسولوجي والسيكولوجي لكل من ابن الجوزي وابن حزم، وقارنا بينهما وبين محدثينا ومعاصرينا من علماء الشرق والغرب، وسعينا لوضع مبادئ، والجزم بنتائج ـ بناء علىٰ شواهد الدراسة ـ تصب جميعها في صالح الفكر الإسلامي، وسَبْقه للفكر الغربي في عالم الوعي الاجتماعي الواقعي علىٰ سبيل التشخيص، وعلىٰ سبيل العلاج.

وعمدنا إلىٰ وضع معطيات ومبادئ ونتائج الدراسة في أربعين مقالاً، خصصنا لكل واحد من العالمين منهما عشرين مقالاً، ونهجنا حرية البحث في الاختيار من مؤلفات ومصنفات كل من العالمين بما يناسب موضوع الدراسة، فلم نلتزم مصنفًا مفرداً لأحدهما، واعتمدنا حرية المقارنة وتبصر أوجه التشابه بين العالِمَيْنِ المُسْلِمَيْنِ وغيرهما من علماء الشرق والغرب، خاصة من القدماء والمحدثين بحسب موضوع البحث، كما يظهر هذا جليًا لدىٰ ابن حزم.

وأكثرنا من ذكر الألفاظ الاجتماعية والنفسية بما يتعارف عليه المتخصصون المعاصرون، وسعينا للكشف عن معاني هذه المصطلحات من خلال سياقها العام، دون تعمد للدخول في جوهر ودلالة كل مصطلح منها علىٰ طريقة المتخصصين؛ إذ إن الدراسة تخاطب غير المتخصصين في المقام الأول.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثبت بأهم المراجع

- ابن حزم الأندلسي، د/ ذكريا إبراهيم
- الأخلاق والسياسة عند ابن حزم، صلاح بسيوني رسلان.
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط أولىٰ، ١٩٨١م.
- الأذكياء، لابن الجوزي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.
- جامع العلوم والحكم، لابن رجب، دار الوفاء.
- دراسات عن ابن حزم، د/ الطاهر مكي.
- ذم الهوىٰ، لابن الجوزي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد، الطبعة الأولىٰ، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٢م.
- رسائل ابن حزم.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.
- صيد الخاطر، لابن الجوزي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
- طوق الحمامة، لابن حزم.
- العقل وفضله، لابن أبي الدنيا.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د/ محمد البهي، طبعة مكتبة مدبولي، مصر.
- لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي.
- مقال في المنهج التجريبي، د/ محمود السعيد الكروي، المنشأة العامة للنشر، طرابلس (ليبيا) ١٩٨٤م.

ـ المنار المنيف لابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

ـ من توجيهات الإسلام، الشيخ محمود شلتوت، الإدارة العامة للثقافة الإسلامية .

ـ المنهجية الإسلامية في العلوم الإنسانية والإسلامية، تحرير د/ نصر محمد عارف، سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة أمريكا .

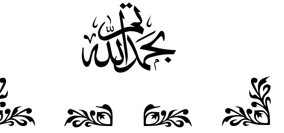
ـ موسوعة الفلاسفة، د/ عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي .

ـ موسوعة الفلاسفة اليهود، د/ حسن حنفي، طبعة مكتبة مدبولي ـ مصر .

فهرس

الموضـوع **صفحة**

ثانيًا: التجديد في الفكر الإسلامي عند ابن حزم



هــذا الكتـــاب

هذا الكتـاب يحـوي دراسـة لِعَلَمَيْن كـبيـرين كـانا مـثالاً على التـجـديد والحـيـوية فـي فكرنا الإسـلامي أجـمـع والتـربوي على وجـه الخـصـوص وهمـا العـلامـة ابـن الجـوزي المولود في العـراق والعـلامـة ابن حـزم الأندلسي ولهـذا سمينا هذه الدراسة بأربعين العراق والأندلس.

أمـا مـوضـوع هذه الدراسـة فهو الإصـلاح المجـتـمعي والتـربوي والتـجـديد الحضاري، وقد تناولناه في أربعين وجهاً بين العلمين الكبيرين.

وذلك لضـلاعتهما في المنهج الوضعي، وسـبقهما في كثيـر من النظريات الاجتماعية، وقوة عـارضتهمـا في تشخيص الواقع الإسـلامي، وبراعـتهمـا في وضع حلول وعلاجات وطرح نظريات ومبادئ واقعية إسلامية.

فاحرص على هذا الكتاب فإن فيه منفعة.

والحمد لله رب العالمين .

المؤلــف





للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت : ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦ ص. ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com